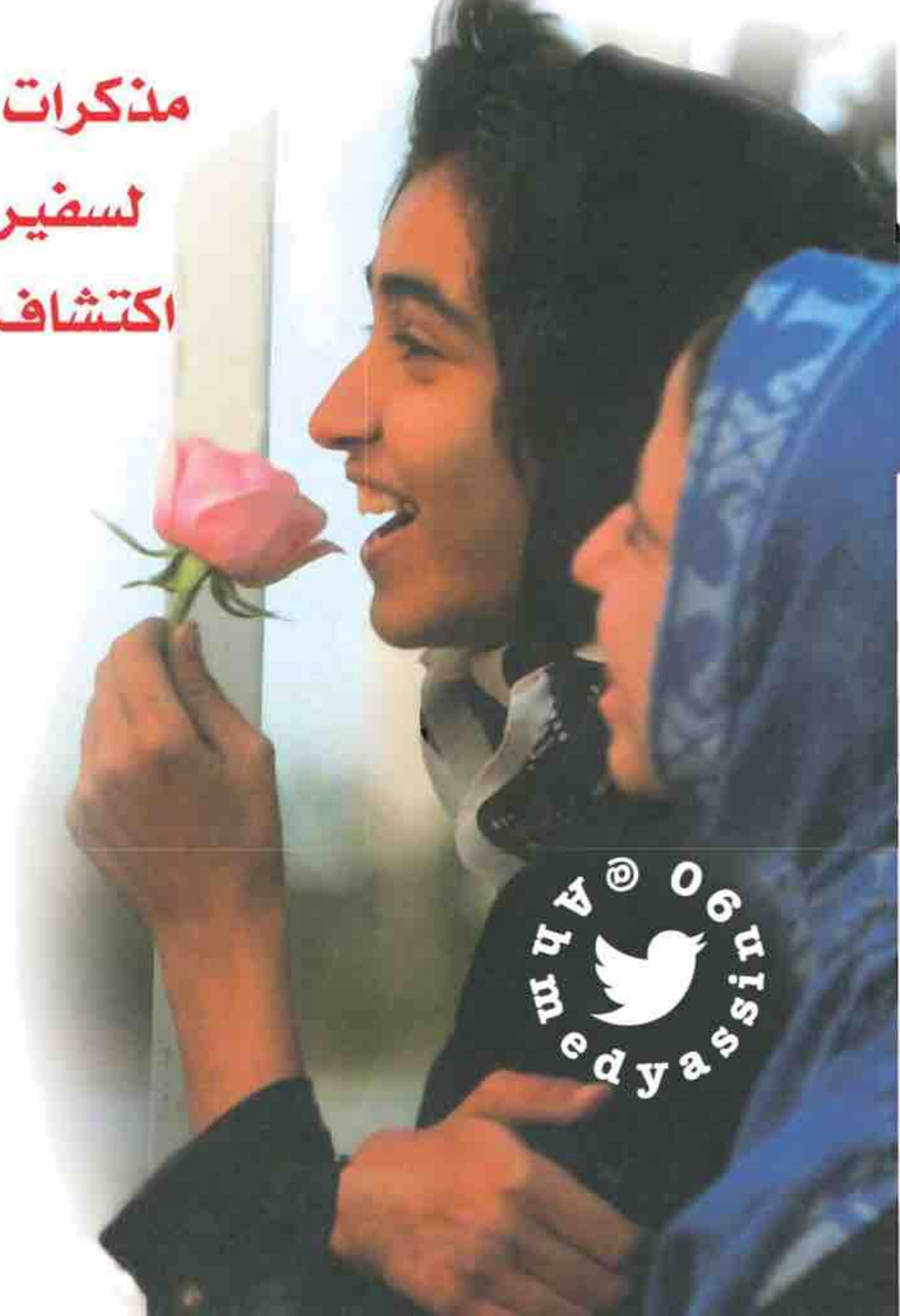
فرانسوا نيكولو

العمامة والوردة

مذكرات غير منتظرة لسفير في طهران اكتشاف إيران أخرى



نقله إلى العربية
مروان حموي

العبيكان
Obeikan



العمامة والوردة

مذكرات غير منتظرة لسفير في طهران

اكتشاف إيران أخرى

فرانسوا نيكولو

نقله إلى العربية

مروان حموي

العبيكان
Obeikan

Original Title
LE TURBAN ET LA ROSE
Francois Nicoullaud

ISBN: 284-114-824-6

ISBN 6 - 548 - 54 - 9960 - 978
الطبعة العربية الأولى 1429هـ ـ 2008م
الناشر العبيكان Obeikan للنشر
المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب
هاتف: 2937581/2937574، فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض 11517

ح مكتبة العبيكان، 1429هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
نيكولو، فرانسوا
العمامة والوردة./ فرانسوا نيكولو: مروان حموي. - الرياض 1429هـ
182ص؛ 14× 21سم
ردمك: 978 - 9960 - 54 - 548 - 6
1 - العلاقات الدولية 2- البترول - اقتصاديات 3- العلاقات الاقتصادية الدولية
أ. حموي، مروان (مترجم) ب. العنوان
ديوي: 327.1011 1429 / 4356
ردمك: 978 - 9960 - 54 - 548 - 6 رقم الإيداع: 4356 / 1429

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan
المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة
هاتف: 4160018 /4654424 - فاكس: 4650129 ص.ب: 62807 الرياض 11595


@Ahmedyassin90




بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إلى زوجتي: كريستيان شارمو


@Ahmedyassin90

شكر

أشكر عالم الإيرانيات الكبير برنارد هوركاد على الملاحظات الحكيمة التي زودني بها عند قراءته لمخطوط هذا الكتاب.

كما أشكر آراش ديرامباش الذي أوحى إلي فكرة تأليف هذا الكتاب.




@Ahmedyassin90

تمهيد

إن الحدث يفرض نفسه، وحتى في هذه اللحظات المتعارضة فإنه يجرف الجميع في طريقه، والوقوف عند الصورة التي يفرضها انطباع عن كتاب يجعلنا نرى في الشرقين الأدنى والأوسط مشهدا يخيم عليه الدمار: ميادين عمّها الخراب والموت في لبنان، حزن وعزلة في إسرائيل فوضى في فلسطين، وفي العراق جروح بشعة بسبب الحرب الأهلية. نعم. إن الشرق أحمر، أحمر من وهج الحرائق، لكنه أسود أيضاً من الغيوم القاتمة التي تتكاثف عند الأفق، هل سنرى قريباً في السماء من طرفها إلى طرفها الآخر الفرسان الأربعة يمرون ليعلنوا نهاية العالم كما ورد في سفر النبوءة التوراتي؟.

في المقام الأول، هناك رجل وربما رجلان، يتخذان وضع المترقب.

الرجل الأول: محمود أحمدي نجاد رئيس جمهورية إيران الإسلامية. ولا شك أنه لم يقرأ سفر القديس يوحنا، ولكنه أصغى بورع شيعي إلى عودة الإمام الثاني عشر، وهو الإمام الغائب الذي سيقيم في آخر الزمان،السلام والعدل على الأرض.

أما الرجل الثاني فربما كان جورج بوش، المسيحي المتجدد روحياً الذي يرى بعض المقربين منه في أهوال الشرق الأوسط علائم لنهاية العالم كما ورد في الكتاب المقدس، وبالنسبة للرجل الأول وكذلك للرجل الثاني فإن النجاح

يريح منهما النفس بسبب عدالة القضية في نظر كلٍّ منهما، ولكن إذا كان ما يظهر الآن هو البؤس فإنه يمنحهما الأمل بأن يوم الدينونة أصبح قريباً.

فأحمدي نجاد عندما يبتهل إلى الله ليعجل فرج الإمام الغائب في نهاية خطبته في الجمعية العامة للأمم المتحدة في صيف عام 2005، فقد كان يشعر آنذاك بأنه محاط بهالة من نور، أما بوش فقد سمع الله يقول له: اذهب إلى العراق، ها هما كلاهما يتحدثان -على الأقل- في ظل الروع من الآتي.

لا الأول ولا الثاني يتلاعبان، فالأول يقصد إسرائيل والثاني حزب الله ولكن كل واحد منهما تهتز نفسه بكل قواها لنجاح البطل الذي يدعمه وبشرف عليه، كما يسعى كل منهما أن يرى في المعركة التي يقترب من إنهائها ما ينقصه، وبالتالي ما بقي عليه أن يفعله ليشكل الشرقين الأدنى والأوسط وفق رؤيته للعالم، نعم، فإيران وأمريكا يسبر كل منهما في هذه اللحظة أعماق عيون الآخر، وفي النهاية الخلفية للميدان يقبع الرهان الكبير للصراع: رمز الانتصار، المدينة المقدسة، القدس.

هناك إذاً بُعدٌ يمتد آلاف السنين في المعتقدات التي تجابه بعضها بعضاً، وهذا بعد كل شيء أمر طبيعي عندما ننتقل من ألفية إلى أخرى. وذات يوم بعيد، بعيد جداً ربما سيكون الاسم الذي سيطلقونه على عصرنا، عندما نتكلم عنه نحن أنفسنا: عصر الرعب الكبير في ختام عام 1000 الميلادية.

وأخيراً، ليس هناك ما يؤكد أن القادم هو الأسوأ، وحتى لو ترقبنا معركة هرماجيدون الكبرى، بل وحتى ذوبان القطبين، فلا بد أن نعيش

حياتنا بأفضل ما نستطيع، وعلينا أن نحاول في الوقت نفسه أن نفهم كيف وصلنا إلى حالنا هذه، وهذا يتحقق عبر بذل جهد ليفهم أحدنا الآخر. وبالتالي لنفهم إيران.

هذا هو هدف الكتاب، إنه ليس مذكرات دبلوماسي أبدا، ولا رواية لرحلة ما، إنه وقفات أمام مقابلات عرضية يصعد نحو ذرى السياسة والمجتمع ثم يهبط ليروي وقائع صغيرة جداً، وبهذا نستطيع أن نتوجه نحو كل الاتجاهات.

إذا كان القارئ مهتما قبل كل شيء بأحداث اليوم، فعليه أن يبدأ دون تردد بالفصل الأخير المكرس للملف النووي، أو يبدأ بالفصل الخامس الذي يتحدث بالتفصيل عن العلاقة المؤلمة بين إيران وأمريكا. أما إذا كان يفضل أن ينفذ أولا إلى الجذور، فليترك نفسه ببساطة ليقوده مخطط الكتاب، وسيرى إلى جانب الجمهورية الإسلامية، وأهدافها ودوافعها، ظهوراً متدرجا لإيران أخرى، ليست أقل حقيقة من إيران في صورتها المألوفة.

إيران هذه، العميقة في أصالتها هي من جهة وريثة نضج طويل جدا وغنى في قواها الكامنة، ومن جهة أخرى لا يجوز عزلها عن النظام السياسي، هاتان الصورتان لإيران، اللتان تكونت الواحدة منهما من الأخرى، تمتزجان بشكل حميمي، حتى ولو ظهر -غالباً- أنهما متناقضتان. إننا نتعلم في هذه المنطقة أن نأخذ بعين الاعتبار أن الحقائق المتناقضة تتراكب مع بعضها بعضاً وكأنها درجات متعددة لبئر تختبيء في قعرها «الحقيقة» الخالصة، نعم. للحصول على صورة أخرى، صورة الأسطورة

المانوية القديمة التي يمكننا تطبيقها على إيران اليوم، فإننا نستسلم لأمل أن الجزيئات التي لا تحصى من الضوء المتناثرة في الظلمات ستندمج شيئا فشيئا كي تنتصر في النهاية على الظلام.

باريس، آب 2006



1

مشاهد الحياة اليومية

كيف يكون المرء إيرانيا؟ هذا هو السؤال الذي طرحته على نفسي وأنا أتابع هذا المشهد الصغير عند حلاق الحي الذي تقع فيه السفارة وتعلوه لافتة كتب عليها بالفارسية كلمة: ماتان وهي تعني «الوقور» ولا نتصور في بلادنا أن يدعى صالون حلاقة، حتى ولو كان للرجال بمثل هذا الاسم إنه صالون حلاقة على الطراز القديم يحيط به بائع خضار ومحل لبيع المستحضرات الصحية، أرض مبلطة، عاملا حلاقة، كرسيا حلاقة قبالة رف طويل تنتصب فوقه مرآة كبيرة، أما الجدار المقابل فتصطف أمامه أربع أرائك بوجه قطني أزغب، و مشجب، وتلفاز معلق في إحدى الزوايا، ومغسلة خلف ستارة يستخدمها زبائن نادرون جداً يرغبون في غسل رؤوسهم بعد الحلاقة، وهناك أيضا زجاجات العطور المعتادة وذات الرؤوس الشعرية ورخيصة الثمن.

في المشهد أب يطلب حلاقة رأس ابنه البالغ من العمر اثني عشر عاماً. وعند انتهاء الجلسة، يسأل الأب الحلاق كم يجب عليه أن يدفع من النقود، فيجيبه هذا بحسب العادة «هذا ليس من قيمتك»، يقصد أن يقول «إن الخدمة التي قدمتها لك لا تستحق أيّ مكافأة» وفي إيران هذا ما يجيبك به مثلا عامل محطة الوقود، على الأقل مرة واحدة، وأنت تجهز نفسك لتدفع له.

عندهـا يخرج الأب محفظة نقوده المحشـوة في داخلها برزمة سـميكة مـن الأوراق النقديـة من ذوات عشـرة آلاف ريال، وتسـاوي الورقة يورو واحداً، وتسـاوي هذه الرزمة راتب شـهر واحد، ويفتـح الرجل المحفظة، ويمـد يده بحركة واسـعة إلى الحلاق قائلا له «خذ ما تريـد» ويقوم هذا الأخير بعد حركة رفض ضعيفة، وقد جوبه بهجوم جديد من الزبون، بمد أصـابعه ويسـحب من الرزمة ورقة واحدة، وهو السعر المعتاد لقص شعر طفل، وكان كلاهما يعرف أن المقايضة سوف تنتهي بهذا الشكل.

هذا النوع من المشـاهد الذي يذكرنا بالمشـاهد السـاخرة من الطراز الأسـباني، نراه ونعيشـه باسـتمرار، جاعلاً من الحيـاة اليومية في إيران ملهـاة دائمة، أو بالأحرى نوعا مـن الكوميديا الإيطاليـة التقليدية، حيث تتنافس فيها الشخصيات، إلا فيما ندر، بتبادل عبارات المودة والحب. فكل امرئ يعلن في كل لحظة ومع انعطاف كل عبارة أنه جاهز للتضحية بنفسه من أجلك، ويمكن مثلا أن يحدثوك عن وفاة شخص ما مجهول تماما منك ومات في فراشـه بشكل طبيعي فتسمعهم يقولون «لقد ضحت بحياتها من أجلك أعطتك عمرها». وقد حدثني صـديق لي زار أحد السجون ، وبشكل أكـثر تحديدا جناح المحكوم عليهم بالإعـدام، إن هؤلاء المحكومين عندما كان يقول لهم من بعيد «صـباح الخير»، كانوا يضعون أيديهم على قلوبهم دون أن يفوتهم قول عبارة الترحيب التقليدية في إيران: «روحي فداك».

أيمكـن لنـا أن نلاحظ ونحن نغـادر بعض الاهتمام من مضـيفنا؟ أنه يعـبر عن سـعادته لزيارتك وكأنـك منحته بركة الحج فيدعـو لك بالقول «أدام الله ظلـك»، يعني بذلـك أنه يأمل أن تكون دائما سـالما، وإيران هي البلاد التي يقولون فيها «سـيدتي» للفتاة الشـابة، كما يقول فيها سـائس الخيل لمهره المدللة «سيدتي».

أما شاخصات المرور فهي إلى حد ما في غير موضعها، وكل سائر يستدل على طريقه بسؤال الناس، هذا السؤال الذي يخلق فرصا جديدة للتواصل ويدرك السائق أن عليه ألا يتقيد بحرفية لوحات المرور، وقد أضعت مرة طريقي عند خروجي من طهران، فسألت عن الطريق إلى مدينة «قم». كان الجواب الذي سمعته: «تابع طريقك بشكل مستقيم، وسوف تصل بعد قليل إلى مفترق طرق، وهناك تصادفك لوحة تشير إلى اتجاه قم، تأكد ألا تتبعها، خذ الاتجاه الآخر...إلخ». وكانت نصيحة الرجل في محلها.

وبشكل خاص، إذا كانت الطريق مجهولة لديك، فقد يعرض ذلك المجهول عليك أن يرافقك، ويتردد المرء أن يجعل أشخاصا بسحنة شاحبة يصعدون إلى سيارته، وقد اعتاد بعض الإيرانيين أن يطلقوا لحاهم أياماً عديدة كي يظهروا بشكل رئيس تدينهم عن طريق قلة الاهتمام بالعناية بمظهرهم، وببساطة أكثر ليكون الواحد منهم مثل الآخرين، وفي الواقع،هؤلاء المرافقون الذين يحملون رؤوسا كرؤوس القراصنة وهؤلاء يجعلون المرء يتساءل إذا هم لن يقودوك إلى طريق مسدود ومهجور كي يخنقوك، على أنهم يظهرون لك وبسرعة أنهم الأدلاء الأكثر عناية بك والذين يرفض معظمهم في النهاية كل مكافأة، كل إكرامية.

وفي إيران، يقولون غالبا إن رجال الشرطة فاسدون، وهذا صحيح بالنسبة لعدد منهم، إنما في مدينة صغيرة وصلت إليها مع زوجتي دون أن نفصح عن هويتنا، رأيت واحدا منهم قد ذهب ليحضر دراجته النارية كي يقودنا إلى فندقنا، وفي اللحظة التي كنا سننفصل فيها، بدا من الرجل تراجع عندما لاحظ أني وضعت يدي في جيب سترتي، إذ خشي أن أخرج بعض النقود. فأمسكت به وطمأنته إلى أنني سأعطيه بطاقتي الشخصية للذكرى.

وبنسبة واحد من اثنين، يعبر الشخص المجهول الذي يدلك على طريقك عن حيرته في معرفة ما إذا كان يستطيع أن يقدم لك خدمة أخرى، كما يدعوك لتناول الشاي في بيته. وهذا تقريبا أمر مؤكد عندما تكون في الريف، وأكثر من مؤكد عندما تكون في الصحراء، وإذا هبط الليل، فهو يدعوك للمبيت عنده، وعندما تكون في نزهة قصيرة وتمر أمام متنزهين يتناولون طعامهم، فإنهم يدعونك بشكل طبيعي كي تشاطرهم طعامهم، بالطبع تجري العادة أن ترفض ذلك، على الأقل مرة واحدة، وإذا حدث أن قبلت بالصدفة دعوتهم، فإن فرح مضيفيك غير المنتظرين، هو فرح صادق.

ومازلت أذكر خادم جامع في إحدى القرى، الذي ذهبنا نبحث عنه في بيته ليفتح لنا باب المسجد، وعندما انتهت الزيارة قدمت له إكرامية صغيرة، فرفضها بإصرار، وأصريت، وانتهى الأمر بأن قبلها على شرط أن نرافقه إلى بيته لتناول الشاي، وقد فعلنا ذلك حيث جلسنا تحت سقف من الآجر فوق سطح حظيرة البقر، في غرفة استقبال نظافتها لا تضاهى، وفرشت أرض الغرفة بسجادة ووضعت على امتداد الجدران وسائد للاتكاء، وكان هناك جهاز تلفاز بالطبع، وقدمت لنا حلويات لا يمكن مقاومتها، حضرت كما حضرت زوجته من حيث لا ندري.

وفي عرض الصحراء، توقفت مع زوجتي بالقرب من أطلال قصر طيني جميل، بجانب غدير يتدفق من نبع في مكان ما، ومر بنا فلاح يمتطي دراجة صغيرة، توقف واقترب منا يدفعه الفضول، وقد دعوناه ليشاركنا طعامنا تحت ظل بعض الأشجار، وعندما جلس، لم يتوجه مباشرة بالكلام إلى زوجتي، فحديثه لها مباشرة يعني عدم الاحترام، والتفت إلي مستخدما

التعبير القديم الذي تلاشى منذ زمن بعيد ولكنه يعبر عن الاختلاف والقرب في آن واحد: «كيف حال والدتنا؟ هل هي سعيدة في بلادنا؟...إلخ».

وفي عمق الشتاء، وعند فلاحين آخرين في الجبل، جلسنا في غرفة الاستقبال، وكانت مجهزة بمنقل جمر في وسط الغرفة تحت طاولة فوقها غطاء عريض بحيث يستطيع كل فرد أن يدس يديه وقدميه تحته طلبا للدفء. بعد الشاي وبضع حبات من السكاكر تبادل الرجل وزوجته بضع كلمات بصوت منخفض، ثم التفت إلينا وقال معتذراً: لا بد أنكما جائعان اعذرونا، فليس عندنا ما نقدمه لكم.. هل ترغبون ببعض البيض؟ لقد قدرنا حجم التضحية التي يقدمها الرجل، فاعتذرنا شاكرين.

يعرف كل إيراني حسب إمكانياته، وأحيانا أبعد منها، كيف يعرض عليك أشكال كرمه، وبعيدا عن هذه المشاهد الريفية قام أحد السفراء وأنا شخصيا بالمشاركة في حفل إفطار كبير في الأول من رمضان، دعانا إليه أبناء إحدى العائلات العريقة، وقد حاول صديقي أن يتذوق كل الأطباق العديدة التي كانت تتناثر فوق المائدة وقال لي هامسا: معهم الحق أن يقولوا إن الأول من رمضان هو اليوم الأصعب في شهر الصيام». ولكن الوصول إلى التعبير عن هذا الكرم يستدعي اجتياز الخط الفاصل بين «الداخل» و «الخارج»، بين مسرح الحياة الاجتماعية وبين الحياة الحميمية العائلية، ولكي تجتاز هذا الخط لا بد لك من حماية من قوانين الجمهورية الإسلامية.

في بعض المناسبات يجري فعلا إزالة الحاجز بين الداخل والخارج، ومن هذه المناسبات الأعراس، وإذا كان البيت صغيرا جدا على الاحتفال،

وهـذا هو الأمر الشـائع، يقـوم بعضـ الإيرانيين، كما هي الحـال في بلدان أخرى باسـتئجار صالة أفراح مناسبة، وداخل هذا المكان الخاص والعام في آن واحد، توضـع القوانين الإسـلامية ولليلة واحدة فقط جانباً، في الصـالة يلتقي الرجال والنسـاء، يتمايلون على أنغام الموسيقى، وتبدو النساء بكامل زينتهـن وتبرجهن، أما الرجـال، فتراهم قد حلقوا لحاهـم، وارتدوا ربطة العنـق ما يشـير إلى انتمائهم للغـرب، وحتى في الأوسـاط التقليدية ترتدي العروس ثوبا أبيض ضـيقاً عند الخاصرة بحيث يبرز معه الصدر ويستقيم الظهر وينسـدل عليه وشاح من التول، أما العريس فلباس الاحتفال لديه هو «السـموكينـج» مع صـدرية وعقدة البابيون بدل ربطة العنق. ماذا أقول؟ إن صورة العريس والعروس لا يمكن أن تجد مثيلا لها في أي استديو في العالم، ويجري تصـوير الحفل بغزارة لتعرض الأفلام فيما بعد على جهاز الـDVD، ولكن في عرض عائلي فقط.

وتشـاهد هذا الجو نفسه في الاحتفالات الدينية للطائفة اليهودية التي تعد حالياً بضـع مئات من الألوف، ويمثلها في البرلمان نائب واحد، شـأنها في ذلك شـأن الطائفة الزرادشـتية، وطوائف المسـيحيين السريان وأرمن الشـمال وأرمـن الجنـوب، وهذا يعنـي أن خمسـة نواب يمثلـون الأقليات الدينيـة في البرلمـان. يحضـر في الاحتفـال الدينـي اليهـودي العديد من الأصـدقاء المسلمين، ويتخلل الاحتفال عشاء ورقص لا يكاد يتوقف، وعادة مـا يكون الاحتفال كبـيراً، وهذا على الأقل ما شـاهدته في الاحتفال الذي دعينا إليه ذات مرة، اسـتقبلتنا عائلة ربما كانت تملك إمكانيات متوسطة ولكنهـا آثـرت أن تـؤدي دورها على شـاكلة العائلـة المالكة أيام فرسـاي. وتتصـرف وفق إيقاع وكأنها في حفل باليه، كان كل فرد من أفرادها يتكلم

وفق طريقة منظمة، ويقدم عبارات الإطراء والترحيب في اللحظة المناسبة والتي يجب أن تقال بشكل تبدو فيه طبيعية جداً، وهذا ينطبق بشكل خاص على الصبية الصغيرة التي أقيم الاحتفال من أجلها لأنها اجتازت عتبة الطفولة إلى البلوغ، كانت الصبية تتكلم وتتحرك وترقص وكأنها أميرة.

بالتأكيد، من حين إلى آخر، وفي فترات التوتر السياسي وحملات الدعوة للرجوع إلى القيم الإسلامية، تبرز ضرورة اتخاذ الاحتياطات في هذه الأجواء الحميمة، من الممكن أن يقوم أعضاء الباسيج وهم أفراد من شباب الميليشيات التابعة للنظام والذين يرافقهم عادة أفراد من الشرطة ويراقبونهم في الوقت نفسه، بالدخول عنوة إلى أماكن تجذبهم إليها أنوار مشعة أو أصوات عالية، فيعتقلون النساء السافرات أو المرتديات ثيابا قصيرة، ثم يسكبون وبسرعة زجاجات الخمر في البلاليع، كما يقومون باعتقال الرجال.

وتمضي ليلة وربما ليالٍ وأيام يظل فيها المعتقلون والمعتقلات في مراكز الشرطة، ثم تأتي أوامر بمثولهم أمام قاض بعيد عن المركز، وتصدر أحكام بالغرامات، وأوامر بالجلد، إنها تجارب مريرة تخلف في النفس جروحاً يخرج المرء منها إما مرتدعاً مقرراً ألا يعرض نفسه لهذه الأخطار مرة أخرى، وإما ممتلئا بغضب عميق وكبير وقد قرر ألا يسمح بأن يتعرض للإهانة مرة أخرى، من الناحية الإحصائية -على كل حال- تُعد هذه حوادث استثنائية ولكنها لا تمنع أبدا التطور الزاحف للأخلاق نحو أنماط حياة يستطيع كل فرد أن يتشربها وهو يتابع عبر التلفزيون فضائيات العالم كله التي يجري البحث عنها عبر الأقمار الاصطناعية، واستخدام أجهزة الاستقبال ممنوع ولكنه يعامل من جهة أخرى بالتسامح، كما هي الحال في كثير من الأمور في إيران.

لنعـد إلى الطـرف الآخر من المخيلة، لنروي قصـة عمـال النظافة في طهـران في اليوم التـالي لزلزال مدينة بام، نسـارع إلى القـول: إن هؤلاء العمال غاية في الود والحب ويؤدون عملاً شاقاً حيث يقوم كل منهم بتنظيف الشـارع الموكل إليه حتـى نهايته، وحتى في أيام العطـل والأعياد، وهذا ما يجعـل في نهايـة الأمر مـن مدينة قبيحة جـداً حيث يتخلص سـكانها مع حركتهم الصباحية الأولى من الورق وأوعية البلاستيك وأعقاب السجائر فيحيلونها في نهاية الأمر إلى مدينة جميلة معتنى بها بشكل جيد.

وقـد أثار خبر الزلزال في 26 كانون الأول 2003 الذي وقع في السـاعة الخامسـة صباحاً وأدى في اثنتي عشرة دقيقة إلى موت ثلاثين ألف إنسان وهـم نيام،أثار مشـاعر عميقة في إيـران وفي كل أنحاء العالم، واسـتنفر سكان طهران فوراً، كما في كل مكان آخر، لجمع الأموال والملابس والأدوية والأغذية، وتوصـل عمـال النظافة في طهـران وهم يبحثون عـن دور لهم طالما أنهم لا يسـتطيعون تقديم ولو جزء بسيط من رواتبهم الضعيفة جداً إلى نتيجـة أن شـوارع المدينـة المنكوبة، حتى ولو كانت مدمرة تسـتحق أن تكـون نظيفة طالما أن عدداً من الناجين تابعوا سـكناهم تحت الخيام بين الأنقاض، وهكذا توجه ثمانون عاملاً متطوعا فوراً مع مكانسهم حيث بدؤوا عملهم بعد ثلاثة أيام من الكارثة تساندهم بعض الجرافات الكبيرة، وقد أصـبح هؤلاء يمثلون منظمة اسمها، منظفون بلا حدود وهي منظمة غير حكومية، وقد شـهد الزوار الأجانب الذي زاروا المدينة بعد ذلك أن شوارع المدينة الشهيدة كانت بنظافة شوارع طهران.

قصـة أخيرة لها طابع شخصي أكثر ولكنها لا تبعد كثيراً عن السياسة. كان أحد المسـؤولين الكبار في مؤسسة وطنية يستقبلني بشكل منتظم لمتابعة

معالجة موضوع معقد، ومن خلال تعدد اللقاءات عقدت بيننا وبالتدريج أواصر مودة وثقة متبادلة، وقد دخلت مرة إلى مكتبه فوجدته بالقميص فقط وقد خلع سترته، واستقبالك بدون سترة في طهران دليل على وجود تقارب بين المضيف وزائره، إذ إن المعمول به في هذا النظام المتشدد هو ارتداء السترة في كل الظروف الرسمية، وحتى في ساعات الحر الخانق. وعندما حاول أن يمد يده إلى سترته سبقته إلى خلع سترتي وألقيتها على كرسي بجانبي، فتوجه من فوره وأخذها وحملها بعناية وعلقها على المشجب. وقد رجوته ألا يكلف نفسه عناء ذلك فقال: كان والدي حلاقا، وقد عملت معه عندما كنت طفلا، وتعلمت منه أن سترة الزبون هي شيء مهم لا يجوز أن تلامس الأرض أبدا، ولأنك صديقي اسمح لي أن أفعل معك الشيء نفسه.

إذن ما النتيجة التي نستخلصها من هذه القصص؟ وبالأحرى ما السؤال الذي يطرحه -بشكل منتظم- كل المراقبين حول هذا العالم الغريب (وبالتالي عن الإيرانيين أنفسهم)؟ فلماذا كل عبارات الترحيب والحفاوة التي يحيطونك بها، ووفق أي معيار هي عبارات صادقة؟.

يمكن أن نترجم طوعا هذا الحذر وهذا الاهتمام في العلاقات الشخصية البينية على أنهم يهدفون إلى السيطرة على التوترات القوية جدا التي تجتاز بشكل دائم الجسد الاجتماعي، كي تعوض عن الكثافة الهشة للمعايير الجماعية المقبولة من كل المجتمع.

ثم، عندما يبذل المرء جهداً كبيراً ليكون ودوداً باستمرار مع كل الناس، فلأنه يشعر في دخيلة نفسه أنه وحيد إلى حد ما في مواجهة كل الآخرين، ناهيك عن أن يكون ضد كل الآخرين، والعمل الجماعي ليس

الحصـــن الذي يلجأ إليه الإيرانيون، وعندما يبرز إلى السـطح، فإنه حتى في النزاعات الاجتماعية أو السياسـية،يحدث غالبا ما يحدث بشكل غير متوقـع وانفجاري وإلى حـد بعيد ارتجالي، وعندما تحـدث أحد المراقبين الحُصَـفَاء عـن إيران (وهذا ينطبق أيضـا على فرنسـا) اعـترف: «بأن الشـرّين يشكلان ظاهرتين في الحضارات القديمة هما الغيرة والتملق... الغيرة لأنها لا تحتمل أن تتجاوزها حضارة أخرى، والتملق بهدف دفع تلك الحضارة التي تجاوزتها إلى ارتكاب الأخطاء».

إذا قلنا ذلك، وبما أن هناك درجات مختلفة للحقيقة، فهناك في الوقت نفســه مسـتوى تكون فيه عبارات الملاطفة والثناء التـي تحاط بها والكرم الذي يقدم إليك،إشـارات لاندفاع صـادق من الممتـع أن تتلقاه في اللحظة نفسـها على الأقل، ومن الممتع أن ترد عليهـا بالمثل بأمل أن تؤدي ذات يوم إلى وجـود الثقة والحميمية، وبالإجمال فإن الإسـراف في هذه الإشـارات التـي يجري تبادلها لا بالكلمات فقط، ولكن أيضـا بالحركات والإيماءات ـ وضـع اليـد على القلب، والانحناء، وثلاث قبـلات يتبادلها أبناء الجنس الواحـد بالطبـع ـ قد يعطي شـعوراً بالتملق، عندما يخشـى كل فرد -بلا شـك- كل الآخرين، فإنه يسـعى أن يأنس إلى كل الناس وأن يأنسـوا إليه، وكما يقول الصينيون القدامى: «إن البروتوكول هو عطر المودة».



2

صوت الشعب

تميزت الفترتان الرئاسيتان للرئيس خاتمي من 1997 حتى 2005، ومن قبلها السنوات الثمانية لحكم الرئيس رفسنجاني بمواجهات شرسة بين الرجلين الإصلاحيين ـ كل على طريقته وبين المحافظين، ولهذا مال العالم الخارجي لإضفاء رؤيته التقليدية على الحياة السياسية الإيرانية، على أنها ملعب يتواجه فيه فريقان، يساري ويميني، يكسب فيه أحدهما ويخسر الآخر حسب الظروف، ولنتذكر مع ذلك أن المحافظين في إيران يتمتعون بامتياز واضح طالما أنهم هم الذين يضعون قواعد اللعبة، ويترجمونها لمصلحتهم ويصدرون الأحكام التي يشاؤون.

ولكن لنفهم بشكل أفضل ما يجري في محيط السلطة، يحسن بنا أن ننطلق من مجموعة دوائر لها مركز واحد، في المركز هناك عقدة صلبة تمثل كفلاء النظام الإسلامي الذين يتحلقون حول آية الله خامنئي قائد الثورة، وبالتالي فهو الشخصية الأولى في النظام، بين هؤلاء هناك جهاز (الباسداران) أي الحرس الثوري الذي يضم نخبة سياسية بقدر ما هي عسكرية، وكذلك السلطة القضائية، ومجلس حراس الدستور الاثني عشر وشبكة خطباء الجمعة، الذين يعينهم مرشد الثورة في كل مدينة في إيران وأخيرا الإذاعة والتلفاز الرسميان والمؤسسات الدينية الكبرى.

حتى لو نشأت صراعات نفوذ عنيفة بين هؤلاء جميعا، فإن كل هذه المؤسسات تعرف كيف تتجمع في الوقت المناسب لتقيم جبهة عامة ضد الخطر الخارجي.

والحكومة الإيرانية المؤسسة على النمط الغربي يقودها رئيس الجمهورية سواء كان إصلاحيا كالرئيس خاتمي وبمعنى ما رفسنجاني أو كان محافظا كما هي الحال مع الرئيس الحالي محمود أحمدي نجاد لا تملك الحق أن تعمل بوحي من ذاتها، بالنسبة للنواة الصلبة إلى أشرنا إليها فإن شرعيتها العليا تأتي وبشكل قاطع من العقيدة، وتبقى آلياتها مختفية تقريبا عن عيون الناس لأن ما هو مهم هو ماهيتها الخفية التي يجب أن تبقى كذلك.

وهكذا، لا يغادر مرشد الثورة إيران، وعندما كان خاتمي رئيسا للجمهورية توجه قليلا نحو البلاد الأجنبية، لكنه لم ير عمليا الغرب. ويقولون إنه لم يزر مكة أبدا ولم يستقبل قادة أجانب خارج القادة المسلمين، أما قادة المؤسسات الدينية الكبرى فلا يمكن الوصول اليهم، ولا يظهر قادة الحرس الثوري أو السلطة القضائية أمام الملأ إلا نادراً.

تتبع هذه النواة الصلبة هيئة -ولنقل هيئة مزدوجة تتواصل النواة الصلبة عن طريقها مع الخارج- وتشكل هذه الهيئة الحلقة الثانية، وهي مجهزة بكل بهارج الحداثة ومظاهر الديمقراطية: برلمان، رئاسة جمهورية وزراء، إدارات، مؤسسات وطنية، وحتى المنظمات غير الحكومية المسيطر عليها تماماً.

نجـد بعد ذلك الحلقة الثالثة ومنها يبـدأ العالم الخارجي للنظام، في هذه الحلقة نصـادف أولا أولئك الذين يدعمون النظام ـ أي نظام ـ كائنا ما يكون دون أن ينتموا إليه، سواء من أجل ازدهار أعمالهم الشخصية كما هي الحال مع رجال أعمال وتجار وصناعيين، أو بدوافع وطنية مثل الكوادر الإداريـة المؤهلة غالبا تأهيلا عاليا والذين لم تعد تغرّهم أوهام الشـباب فاختـاروا أن يبقوا في إيران، على الرغم من رواتبهم القليلة، وعلى الرغم من كل الصعوبات، بهدف خدمة بلادهم.

وبالإضافة لهذه الحلقة الثالثة نستطيع أن نميز كل الهيئات الاجتماعية الأخرى في البلاد، ونذكر من بينها كيانا مازال شـابا، و لكنه أثبت وجوده في المجتمـع المـدني الذي يتمتع بأهمية كبرى عندمـا نتكلم عن إيران وهو غير واضـح الحدود طالمـا أنه يضـم اللاعبين السياسـيين والاجتماعيين الكثر من صـحفيين، فنانين، مثقفين، حقوقيين ورجال ثقافة موزعين على امتداد المستويات العليا وعلى علاقات دقيقة مع النظام.

وحتى الآن بالكاد نستطيع تمييز غالبية الشعب الإيراني في هذا اللوحة التي رسـمناها آ نفا، ولكنه يجب أن نسـترجع الذكـرى الطيبة لكل الذين ينتظـرون دوما تحقيق الوعـود التي قطعت لهم خلال ربـع قرن منذ فجر الثورة الإسلامية، ولهذا السبب انتخبوا في تموز 2005 لرئاسة الجمهورية رجلا غير منتمٍ تماما، يبدو للوهلة الأولى رجلا قليل الأهمية ولكنه سرعان ما جعل الناس يستشـفون جوانب من شخصـيته مثيرة للقلق: إنه محمود أحمدي نجاد.

في هذا المخطط الذي عرضـته، يمكن لنا أن نترجم المواجهة المستمرة بين الإصـلاحيين والمحافظين والتي طبعت الفترتين الرئاسـيتين لخاتمي

على أنها تفسـير لصـراع بين الحلقتـين الأولى والثانيـة، فالحلقة الثانية تعني اسـتقلاليتها لمصلحة الموجة الشـعبية التي حملت عام 1997 بطلها إلى سـدة رئاسـة الجمهورية، والتي اعتـبرت إلى وقت قريـب أنها تحمل مشـروعها الخاص وهـو الديمقراطية الشـرعية. وكانت الحلقـة الأولى تذكّرهـا بـلا انقطاع بوظيفتهـا الحقيقيـة والوحيدة، وهي حمايـة النواة الصـلبة في النظـام وأن تكون المترجم الأمين لها وذلك لخدمة الشـرعية التي هي فعلاً شرعية.

واليـوم، أصـبحت الحلقة الثانية نفسـها محافظة، وبالتـالي فهي من نسيج الحلقة الأولى، ولكن الرئيس الحالي محمود أحمدي نجاد وأصدقاءه لا يرتدون العمة، وليسـوا من جيل رجال الدين الذين صـنعوا الثورة، لقد جـاؤوا من عالم الحرس الثوري الذي قاتـل العراقيين وجماعـات الثورة المضـادة، وهذا لا يتنافى أنه وأصـدقاءه يبحثون عن دور لهم ليتخلصـوا من العبء الثقيل الذي تفرضه على كواهلهم الحلقة الأولى مستفيدين من الشرعية التي كسبوها من صناديق الاقتراع.

يذكرنا المخطط الذي قدمناه بتنظيم السلطة في الديمقراطيات الشعبية الآفلة، وفي نسختها المختزلة، أي النظام الستاليني، لقد اختفى ستالين من الساحة الإيرانية تماما، لكنهم احتاجوا إلى حدثين شجاعين لإجباره على الرحيل عن أرض الوطن الأم وذلك عبر مؤتمري طهران وبوتسدام.

كان النظام الشـيوعي ينعم أيضـاً بخصـائص النظام الديمقراطي: دسـتور مفصـل، برلمـان منتخب مباشـرة من جميـع المواطنـين، حكومة مسـؤولة أمام البرلمان، ونظام فيدرالي... إلخ. ولكن كل الناس يعلمون أن

ذلك التنظيم ليس إلا الوجه الآخر المعد للتعامل مع العالم الخارجي، أما الأمور الخطيرة فتقرر في مكان آخر بعيد عن كل ذلك، في قلب النظام حيث توجد قيادة الحزب الشيوعي واللجنة المركزية والمكتب السياسي.

إذاً، هل ورثت الثورة الإسلامية النظام الستاليني؟ ليس الأمر كذلك فعلا. وإذا كان النظامان متشابهين فلأنهما قد وجدا في أعماق تاريخهما طرازا مجربا للطغيان الآسيوي حيث تختفي السلطة الحقيقية التي لا يمكن الوصول إليها إلا باجتياز سلسلة من العقبات ورفع حجب متوالية.

من أين جاء هذا التعبير الشائع في إيران: «من خلف الستار»، للحديث عن أشياء وآليات غير مرئية تتحكم في مسرح المشهد السياسي؟ من أين أتت هذه الفكرة الثابتة التي تشترك فيها المنطقة كلها وهي التفتيش باستمرار عند بحث كل قضية، عما يظنونه السبب الأول وهو في الحقيقة الأكثر بعدا عن استنتاجات الحس السليم، ووفق هذه الفكرة يصبح الموساد هو المخطط لاعتداءات 11 أيلول ويصبح طوني بلير الآمر بتنفيذ اعتداءات 2005 في محطات النقل العام في لندن.

في نفس الوقت، إنها حقيقة أن أموراً كثيرة في إيران تجري «من وراء ستار». على هذا الشكل تجري بشكل خاص كل السياسة التي يقودها شخصيا مرشد الثورة دون أن تمر على الحكومة، وفي كثير من الأحيان دون علمها، وعندما يتعلق الأمر بشان خارجي تكون المناورة من مهمات الحرس الثوري، وهذا حقيقي تماما فيما يتعلق بأفغانستان، وواضح جداً في العراق، وصحيح جدا في موضوعي فلسطين ولبنان. إنهم لا يحسبون حسابا لأحد إلا المرشد... وأكثر من ذلك تتطلع الحكومة إلى نتائج

أعمالهم من قراءة الصحف، من الصعب جدا، إذاً، أن نحدد نصيبهم بدقة في اضطرابات المنطقة، ويصعب على الناس تصديق الناطق الرسمي لوزارة الشؤون الخارجية وهو يؤكد بشكل دوري، ويده على قلبه أن إيران لا تقدم للميليشيات الشيعية في العراق، ولمنظمة حماس وحزب الله إلا «دعما معنويا» وعند اللزوم «إنسانيا».

واستنادا لهذا الترتيب المركزي لمناورات السلطة جرى الاحتفال بتنصيب محمد خاتمي في آب 2001 في ولايته الثانية، وقد جرى الاحتفال في الحي الحكومي الذي يشبه مدينة محرمة، ويقع وسط طهران، وقد أدت عدة اعتداءات غامضة استهدفت قادة سياسيين في بداية الثمانينيات إلى تحصين المكان، وبتحديد أكثر كان الاحتفال في مسجد هذا الحي، في صحنه الواسع الذي ليس له ما يميزه سوى أنه أشبه بهنغار منه بمكان مقدس.

حضر الاحتفال مئات من الشخصيات والنواب وأعضاء الهيئات الدستورية، تجمعوا وكأنهم في انتظار خطبة الجمعة، متربعين على الأرض المفروشة بالسجاد، وقد خلعوا نعالهم كما يفعلون في كل المساجد، وقبالة هؤلاء المدعوين وعلى منصة عالية جلست الشخصيات الثلاث الأولى في الدولة: علي أكبر هاشمي رفسنجاني (رئيس الجمهورية السابق ورئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام والذي أمضى طيلة التسعين دقيقة التي استغرقها الاحتفال ساكنا بلا حراك وبوجه خال من كل تعبير وكأنه لاعب بوكر من الدرجة الأولى). ثم محمد خاتمي (رئيس الجمهورية المنتهية ولايته والذي جدد انتخابه لولاية ثانية)، وأخيرا علي خامنئي، (الشخصية الأولى في النظام).

في المشهد المذكور شاهدنا عمامتين سوداويتين لخاتمي وخامنئي دلالة على تحدرهما من سلالة آل البيت ـ من بين عشرات الآلاف الآخرين ـ وعمامة بيضاء هي عمامة رفسنجاني الذي ينحدر من أصول أكثر تواضعا. في وسط المكان وضعت «كنبة» مذهبة من طراز لويس الخامس عشر جلس عليها خامنئي، وإلى جانبيها مسندان مغلفان مريحان، ومسند لكل من الرجلين الآخرين المتربعين فوق سجادة شأنهما في ذلك شأن جميع الحاضرين، وفي الخلف وضع صفان من الكراسي البلاستيكية لأعضاء السلك الدبلوماسي، وهم الوحيدون الذين سمح لهم بعدم خلع نعالهم.

عزف النشيد الوطني، وقرأ العريف على الملأ نتائج الانتخابات وتناول الرئيس خاتمي الكلام واقفا فامتدح ببلاغة عملية الانتخابات العامة والسيادة الشعبية مستعيناً بورقة صغيرة في يده كان بالكاد يستعين بها، وخلال عشرين دقيقة تحدث عن كل شيء وبجزالة كما يعلمون في الجامعات القرآنية.

انتهى الخطاب فأخذ مرشد الثورة بدوره الكلام ولكن دون أن يغادر كرسيه، ودار خطابه المرتجل حول الموضوع نفسه، وعلى مدى ثلاثة أرباع الساعة دون أن يذكر ولو لمرة واحدة اسم الخطيب السابق وذلك ليشعر الآخرين أنه هو الرئيس الفعلي، وقد امتدح هو أيضاً سيادة الشعب وتحدث عن الأهمية الكاملة لاحترامها، ولكنه ذكّر أيضاً، ومطولا بأن كل ديمقراطيات العالم تطبق في إطار معين: فبالنسبة للديمقراطيات الشعبية التي عفا عليها الزمن، كانت العقيدة الشيوعية لا تسمح بمخالفتها، كما أن الديمقراطيات الغربية لا تسمح بالتحرر من النظام الرأسمالي، وقال: نحن لا يمكن لنا تصور أن ينتخب شخص ما رئيسا للولايات المتحدة دون أن يتلقى الدعم من رأس المال الكبير.

أما ما يتعلق بالجمهورية الإسلامية فإن إطارها تأسس على العقيدة، وهذا هو السبب في أنها الديمقراطية الأفضل والأكثر كمالا والأكثر صلابة بين الديمقراطيات الأخرى، ولذلك فهي لا تواجه خطر الاضمحلال كما حدث للأنظمة الشيوعية، وسيتمكن شعبها المستنير من أن ينجو من الشرور التي تفتك بالمجتمعات الغربية، حيث الحالات الأكثر انتشارا (الدعارة، والإباحية، والشذوذ الجنسي).

وانتهى الاحتفال، ونستطيع أن نجيب أن المكسب الصغير الذي قدمته الديمقراطيات الغربية هو القدرة على انتقادها من الداخل دون مواجهة أخطار كبيرة، بينما ممارسة النقد نفسه في إيران تقود إلى السجن، وأحيانا إلى ما هو أسوأ، ولكن الناس كانوا قد فهموا سابقا أن الحكومة الإصلاحية التي ستعود من جديد للقيادة لن تستطيع أن تفعل في السنوات الأربعة القادمة أفضل مما فعلته في السنوات الأربعة الماضية، وهذا ما حصل بالفعل.

ومن المؤكد أن خاتمي لم يرغب إطلاقا خلال فترتي رئاسته الأولى والثانية في الدخول في اختبارات القوة في كل مرة منعوه فيها من التقدم وفي كل مرة سجنوا له أصدقاءه وأغلقوا الصحف المؤيدة له، ولم يحاول مطلقا أن ينشئ تشكيلا سياسيا حقيقيا مستندا إلى التلاحم الجماهيري كي يسانده في مشاريعه، وبهذا المعنى تصرف خاتمي كجزء من النظام الذي كان مخلصاً له حتى النهاية.

ويروون أن علي خامنئي قارن مرة بين رئيسي الجمهورية والذي كان يوجهها من خلال منصبه كمرشد للثورة قائلا عن الأول (رفسنجاني):

عندما أراه لأبحث معه شؤون الدولة، كان يوافقني على كل ما أقول، ولكن ما إن ينتهي الحوار بيننا كان يفعل تماما عكس ما تمنيت منه أن يفعله، وقال عن الثاني، أي (الرئيس خاتمي) «كان يعارض بشدة كل شيء ويناقشني في كل أمر بمنتهى الأناة، ولكنه عندما يدير ظهره، تراه يفعل بالضبط كل ما طلبته منه».

وكان خاتمي المثقف كثيرا والسياسي قليلا موضع انتقاد دائم لغياب شجاعته من قبل أولئك الذين كانوا يأملون بأن يستخدم على الأقل السلاح الوحيد الباقي له، وهو الاستقالة وذلك عندما جعلوه يبتلع ما هو غير مقبول عند النظام، وقد مرت أمامه فرصتان أو ثلاث فرص لكنه لم يستغلها، ولكن إذا كانت تعوزه الشجاعة، فإن ميزته الكبرى أنه أعطى للمجتمع الإيراني فرصة أن يقترب من عتبة الحداثة.

واكتشفت إيران عندما صوتت لخاتمي أن لها هوية جديدة مختلفة تماما عن صورتها التي تعرفها عن نفسها قدمتها لها الثورة الإسلامية لأنها الطاعة، والخضوع لقواعد أصبحت، بقوة أشكال القهر تجبرها أن تأخذ شكل مدينة القرون الوسطى من طراز «مدينة الرب». أما وقد تحررت من هذه المعتقدات الضيقة، داخليا على الأقل فأعتقد أنها لن تكون أسيرتها مرة أخرى.

وأخيرا، كانت خيبة الأمل الشعبية من الإصلاحيين عميقة، وعنيفة، وقد حدث الطلاق عند إجراء الانتخابات البلدية عام 2003 (وهي الثانية من نوعها، أما المرة الأولى فقد دفعت الانتخابات بأغلبية كبيرة للإصلاحيين في مجالس البلديات).

في هــذه المــرة كان لامتنــاع 70% من النـاخبــين عن التصــويت نتائج تاريخيــة، ففي طهران مثــلا توجه 12% فقط من النـاخبين إلى صـنـاديق الاقــتراع، ليعطي هذا الغياب شــكل حركة رفض مدني جماعي.. وبفضــل هذه اللامبالاة عاد المحافظون ليختطفوا واقعيا المجلس البلدي ويضعوا في منصب محافظ طهران ـ وهو منصب إداري ـ محمود أحمدي نجاد الذي بدأ مسيرته السياسية.

ولكنه -وعلى الرغم من كل شيء- هنـاك بعد ديمقراطي في هذا النظام حيث يذكر القادة دوما أنه منذ تأسـيس الجمهورية، ينظم استفتاء شعبي مرة على الأقل في السنة، سواء تعلق الأمر بالبرلمان، أو بانتخابات الرئيس أو بانتخابــات مجلــس خبراء حمايــة النظام الذي يعين مرشــد الثورة، أو حتى في الاستفتاءات الدستورية المختلفة.

لهذا لا نســتطيع، كما يفعل المراقبون الخارجيــون أن نفرق فيما يتعلق بالمسؤولين في النظام بين المنتخبين وغير المنتخبين، فكل مناصب المسؤولية تصــدر عن انتخابــات عامة ســواء كانت انتخابات شــعبية مباشــرة مثل البرلمان والرئاســة، أو انتخابات على درجتين مثل: انتخاب مرشد الثورة. الذي ينتخب بالتأكيد مدة غير محددة، هي في الأصــل مدى الحياة. ولكن بالإمــكان في الوقت نفســه إعفاؤه إذا جرد من صــلاحياته من قبل مجمع خبراء حماية النظام الذي كان قد انتخبه.

هنــاك آخــرون يجــري تعيينهــم من قبــل هيئــات منتخبة أصــلاً مثل الأشــخاص الإثني عشــر في مجلس حراس الدســتور، الذي يشبه المجلس الدســتوري، وقد قرأنا في الصــحافة الغربية الكثير بــأن «هذه الهيئة غير

المنتخبة تتدخل في العمليات الانتخابية»، وهذا صحيح تماما، ولكنه بعد كل ذلك هو إجراء صحيح أيضا بالنسبة للمحكمة العليا الأمريكية التي يسمى أعضاؤها مدى الحياة من قبل الرئيس وحده وقد أدت دوراً حاسما في انتخابات بوش للدورة الأولى.

ومن المفهوم تماما أن تنظيم الانتخابات الوطنية يعطي فرصة لكل أنواع التلاعب وخاصة من جانب مجمع حفظ الدستور المؤلف من عشرة من علماء الدين ومن عشرة من الحقوقيين الاختصاصيين، وإحدى أهم مهمات هذا المجلس هي اختيار المرشحين وفق معايير يؤدي فيها التدين العام والأخلاق الشخصية دوراً كبيراً، وتصدر قرارات هذا المجمع استنادا إلى معلومات شبكة من المخبرين المكلفين بالتدقيق في حياة المرشحين، وهي قرارات نهائية ولا تقبل استئنافا.

وهذا ما حدث في الانتخابات التشريعية الأخيرة لعام 2003 إذ استبعد أكثر من ألفي مرشح، وبذلك خرج من الحلبة القسم الأكبر من النواب الإصلاحيين. ترى ماذا فعل هؤلاء؟ هل أدينوا بالزندقة؟ هل شربوا الخمر؟ هل مارسوا التجديف؟... إنه لغز. ولقد تمنى مرشد الثورة على المجمع المذكور إنقاذ بعض المستبعدين، وقد نفذت رغبته فورا، ولكن حتى في هذا، جرى الأمر بسرية تامة.

لكن التعصب أو التحزب عند هؤلاء المتدينين لم يمنع تماما حدوث المفاجأة الكبرى في الانتخابات الأولى لخاتمي عام 1997، حيث شهدنا مدا مرتفعا في مواجهة المرشح الديني المحافظ الذي اختاره النظام. وكذلك فإن انتخاب البرلمان الإصلاحي عام 2000 لم يكن مبرمجا.

وكذلك كان الرفض الذي تجلى في الاستنكاف عن المشاركة في الانتخابات البلديـة عام 2003، كان مفاجأة للجميـع مع عدم تجاهل التوجيهات التي كانـت تنقل همسـا إلى المواطنين، وأخـيراً فإن انتخاب المحافظ المتشـدد والشخصية الشـعبية أحمدي نجاد لرئاسة الجمهورية عام 2005 لم تكن أيضاً منتظرة.

وفي الواقع، لم يكن أحمدي نجاد هو الشخصية المفضلة لدى مرشد الثورة الذي قرر أن يدعم شخصـا آخر، فقبل بضـعة أيام مـن الدورة الانتخابية الأولى شعرت النواة الصلبة في النظام بخيبة أمل من الحملة التي صاحبت المرشـح الذي اختير أولا، فقررت أن تسـتبدل فرسـها، لذلك وضـعت كل ثقلهـا وراء هـذا غير المنتمي الذي لم يسـبق له أبدا أن تقـدم للانتخابات والذي لم يظهر إلا في وسائل قليلة جدا ليقود حملته الانتخابية.

وهكذا برز أحمدي نجاد في الجولة الثانية، ولكنه بقي غير مفضل طالما أنه يتنافس مع شخصية رفسنجاني الذي سبق وأن أصبح رئيسا للجمهورية مرتين، وهو شخصـية أساسية في النظام ويملك الوسائل اللازمة وأشكالا مهمـة من الدعم، وقد نظـم أحمدي نجاد إسـتراتيجيته على «القطيعة» وقدم نفسـه كمرشـح للفقراء المهمين وضـحايا الفسـاد والنخـب المهملة وداعيا للعودة إلى صـفاء أفكار الثورة الإسـلامية، وكانت فقاعة شـعبيته تكبر سـاعة بعد سـاعة خلال الأسـبوع الذي فصـل بين الجولتين، وكانت النتيجة الأخيرة نجاحه بفارق سـتة ملايين صوت عن منافسه رفسنجاني مفاجئا بذلك كل المراقبين والإيرانيين بشكل خاص.

نـورد كل ذلك كي نقول: إنه إن كان هناك مفاجأة في الانتخابات فلأن هنـاك ديمقراطية (لأنه لا مفاجـآت انتخابية في أوروبا الشـرقية أو عند

صدام حسين). وإيران وبمناسبة الانتخابات الوطنية وعلى الرغم من كل أشكال التلاعب في الانتخابات، إلاّ أنه أهلّ لاحتمال المفاجآت المختلفة وتحمل النفحات الحقيقية من الحياة الديمقراطية، وبالتأكيد، ما إن مرت اللحظات العصيبة، حتى عادت الألعاب السياسية المعتادة تطفو على السطح، ولكن هذه الظاهرة ليست إيرانية خالصة.

تناقض أخير، ربما: تظهر الثورة الإسلامية، مع الجيل الجديد الذي أفرزته الانتخابات والذي يمثل انتكاسة إلى الخلف، تظهر بصفتها ثورة حقيقية لها صورة الثورة الفرنسية أو الثورة السوفيتية وبنفس دورات التشنج ونفس الأهوال، ونفس المجازر، ونفس الإرهاب، ونفس طرق إثارة الحماس لمقاومة الغزاة، أو لنقل شعلة الأفكار الجديدة للعالم بأسره.

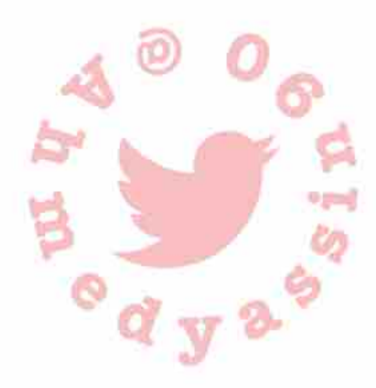
هناك أيضاً مرحلة الخروج من الأزمة، أو الفترة التورميدورية[1]. ففترة حكم رفسنجاني بما أحاط بها من فساد وعودة المهاجرين تذكرنا بفترة حكم المديرين في فرنسا، وانطلاقا من تلك الفترة اختلطت الأمور. والرئيس خاتمي لا يشبه بأي حال أي رئيس آخر ومن المبكر أن نقول أي علامات سيتركها أحمدي نجاد؟ وحتى الآن مازال يتحرك واضعا الرأي العام الغربي خلف ظهره، محققا بذلك شعبية سهلة في إيران وفي العالم العربي الإسلامي على حد سواء، أما في الداخل فلم يتبدل حتى الآن أي

(1) إشارة إلى الفترة التي سقط فيها روبسبيير في شهر تورميدور من السنة الثانية من الثورة. وتورميدور هو الشهر الحادي عشر من الثورة الفرنسية وأعدم روبسبيير على المقصلة في تموز 1794.

شـيء، فالاقتصاد ما زال ضعيفا والتضـخم يزداد أكثر فأكثر، ولا تظهر أبدا بشـائر الإصـلاحات التي قطعت للناس، والقيود تشتد في كل الميادين على المثقفين والمبدعين الذين يأبون الخضوع للرقابة السياسية والأخلاقية الخانقة التي ما زال المحافظون يمارسونها.

ومهما حدث سنحتفظ بذكرى الانتخابات الإيرانية المنظمة بشكل جيد وقـوي وقد طبعت بكل العـزة اللازمة، وبمراكز التصـويت بجوها الهادئ الوديع حيث يقدم المسؤولون عن تطبيق النظام الحلوى للزائرين.





3

جبال ومعجزات

تُعد إيران من أجمل بلاد العالم، ولكنها تتصف بملامح قاسية، وهي في الأصل غور بحري عميق أدى ضغط شبه الجزيرة العربية على قارة آسيا إلى دفعه إلى الأعلى ليشكل هضبة عالية تكسرت إلى ثلاث سلاسل جبلية. والسلسة الأهم من بين السلاسل الثلاث هي جبال البورز تتوجها قمة دامافإند وهي عبارة عن بركان خامد أساسا، إنما تصدر عنه أعمدة دخانية تنطلق من مخروط تام على شاكلة فوجي ياما، وهذا الجبل المقدس في المخيلة الإيرانية يشكل الأرضية التي صيغت فوقها الأسطورة العظيمة عن تشكل «الجنس الإيراني»، والمعروفة باسم كتاب الملوك، كما أنها المكان الذي يسكنه سيمورج، وهو عصفور أسطوري كانت تبحث عنه مجموعة من الطيور أمضاها الحب فشكل كل ذلك لحمة لواحدة من أجمل الحكايا الأسطورية في كل زمان، وهي حكاية مؤتمر العصافير التي امتدحها أراغون[1] في روايته مجنون ألسا.

أنا أتكلم هنا بلغة العصافير

التي رأيتها أثناء ترحالي

---

(1) أراغون: (1982-1897) روائي وشاعر فرنسي زعيم الحركة الأدبية الفرنسية الدادائية والسوريالية، شارك في المقاومة الفرنسية ضد المحتل الألماني. له رواية بعنوان مجنون ألسا (المترجم).

وهي ترسم في الفضاء صفوفا تشبه المقصات

كي تفصل الغيوم

وتحليقها يبدو وكأنها تعبر الفضاء

وهي تشق الأجواء

نحو بلاد لا تدركها العيون

يقودها الهدهد حينما ذهب يدعو ملكة سبأ

بعظمتها وعذب منطقها

إلى بلاد بعيدة

وهناك أيضاً، عند سفح دامافاند كان يحل كل عام، الملوك القاجاريون في القرن التاسع عشر مع بلاطهم الذي كان يؤلف قرية واسعة هربا من الحر وخوفاً من وباء الكوليرا في طهران، وكي يغوصوا من جديد في أعماق ماضيهم البدوي، وكان السفراء يتبعونهم على ظهور البغال ليقيموا متقاربين في قرى صغيرة مجاورة.

وإلى سفوح هذا الجبل تتجه دوما في الفصل الحار قطعان الغنم والماعز الكبيرة يقودها الرعاة مع عائلاتهم صاعدين السهول كي يقضوا بضعة شهور تحت الخيام.

وإلى هذا المكان يأتي الإيرانيون وكأنهم صدى بعيد لملوكهم ما بين شهري أيار وأيلول في عطلة نهاية الأسبوع لينالوا قسطا من الاسترخاء.

وفي بعض أيام الجمع في العام وعلى الطرق الضيقة التي تؤدي إلى الجبل يختلط طوفان سيارات المتنزهين مع طوفان قطعان الغنم المتوجهة إلى الجبال، ويتأمل الطهرانيون الذين لم يعد يثير أعصابهم اختناقات المرور اليومية، طوفان الأغنام المتواصل حيث تندس الأغنام بين جنبات السيارات والرفارف التي تتلقى بين الحين والحين ضربة من قرن تيس كبير أو أخرى بسبب تعثر حمار ينوء بحمله، كما أن هناك بعض الكلاب التي لا تعير كبير انتباه للقطعان وتتصرف كأنها مدعوة وليست كلاب حراسة.

ومع اقتراب الصيف تكتسي جنبات الجبل وسفوحه بغطاء من نبات الخشخاش البري الذي تبدأ أزهاره الحمراء الفاقعة بالتفتح في منتصف حزيران وكأنها فراشات تخرج من شرانقها، وفي نهاية حزيران، تسقط بدورها أوراق الزهور، وينتهي فصل الإزهار الذي يدوم أسبوعين فقط. وتتحول السفوح التي كانت تغطيها الحمرة إلى بساط أخضر، وتتراجع الثلوج الدائمة إلى أماكن أكثر ارتفاعا، ويعتقد المرء أنه كان يتنزه في الفردوس.

وتبدو جبال البورز بكاملها وكأنها فردوس فسيح، مع أنه ليس جميلا جداً أن تسكن قراه الأكثر ارتفاعا والتي تنقطع عن العالم لأسابيع عديدة بسبب الثلج، ناهيك عن امتداد العزلة شهوراً عديدة، ومن الجانب الشمالي ينحدر الجبل بشدة نحو بحر قزوين الذي يفصله عنه شريط سهلي ضيق، وهذه المنطقة تُعد إحدى المناطق النادرة في إيران الغنية بالخضرة والمشبعة بالماء بفضل الغيوم الكثيفة التي تتشكل فوق البحر

والتـي تتحرك لتصـطدم بسـفوح جبـال الماسـيف، وهنا نلتقي بأشـجار ونباتات المناطق المعتدلة، والغابات الكثيفة والمفروشة بالمروج، ولكن أيضاً مزارع الشاي ومساحات شاسعة من حقول الأرز التي تزرع بنفس الطريقة التـي يـزرع فيهـا في كل مكان في آسـيا: الفلاحة في الطين، وصـفوف من النساء المنهكات من نقل الغراس.

لا شيء هنا يشبه بقية البلاد التي تتصف بالطابع الصحراوي للشرق الأوسـط. وهذا التناقض بين هذا المكان وبقية البلاد التي تُعد من المناطق القاحلـة أو نصـف القاحلة جعل من شـواطئ بحر قزوين المكان المفضـل لقضاء عطل الصيف، وهو -حصراً- المكان المفضل لدى الطهرانيين فهم لا يفكـرون في أي مـكان آخـر، إنه مـكان إقامتهم الثـاني، بالرغم من أن كثافة المصطافين قد شوهت منظر الشواطئ الرائع. هناك يلعبون الورق، ويدخنـون، ويشـربون، ويشـاهدون التلفـاز، وفيها يتسـاقط المطر تقريبا طول الوقت. ويسـتطيع المصـطافون في هذه الأجواء الرخية أن يتصـوروا أنفسـهم خلال 48 ساعة أنهم بعيدون عن مبادئهم وأنهم في مكان ما من ديفونشاير أو النورماندي، قبل أن يعودوا إلى هذا الجو الخانق في طهران، إنهـم يعودون وقد اغتسـلت أرواحهم من الانتماء المتطـرف للبلاد، حيث تخلصوا منه خلال العطلة.

ومع هذا النوع من المناخ، وهذه الموارد، كان هذا الشريط الساحلي مدة طويلة مصـدر الغنى الرئيس لإيران: فمن يمتلك هذا الشـريط الخصـب يملك البلاد كلها، وقد وصـل مؤسسـو الإمبراطوريات الثلاث في العصـر

الحديث وهم الصفويون والقاجاريون والبهلويون، إلى شواطئ قزوين، ومن هناك كان يتسرب أيضا النفوذ الأوروبي، وفي كل الأحوال نفوذ الدولة نصف الأوروبية وأعني بها روسيا، التي كانت أساطيلها تقوم في القرن التاسع عشر بملاحقة القراصنة، فتجتاز جيوشها القوقاز لتقضم الضفاف، وكان عملاؤها يشجعون النزعات المحلية على الاستقلال. لقد حققت بالفعل السيطرة الكاملة على المنطقة.

وتجد كل هذه المعلومات في رواية تينيانوف المدهشة: (موت الوزير مختار)، حيث يحكي عن مغامرات الدبلوماسي الشاعر غريبوادوف في بلاد فارس ونهايته المأساوية. وكان غريبوادوف صديقا لبوشكين وقتل نتيجة دسائس سوداء حيكت له في القصر من قبل دهماء طهران: وهي الرواية التي قال عنها أراغون (أراغون مرة أخرى) إنه كان يحب أن يكون هو كاتب الصفحات المئة الأخيرة و التي تحبس الأنفاس.

علينا الآن أن نترك البحر الرمادي والخضرة الفاقعة لمزارع الأرز وخضرة الغابات القاتمة ونغادر قاصدين قمة جبال البورز، وعند الاقتراب من ذروة الجبل يتبدل كل شيء في عشرين دقيقة، فالخضرة تختفي، وتحل محلها الصخور، وتمتد الأرض الجدباء بين شجيرات تختفي شيئا فشيئا كما تقصر قامتها بالتدريج، وقد مالت إلى اليباس أكثر فأكثر، وتتخفف السماء من كل الأبخرة التي حملها إليه البحر و تتحول إلى زرقة صافية. وبالكاد يمكننا أن نشاهد فوق منحدر ما شجرة معزولة متعلقة قررت أن تصارع للبقاء.

وبين الصـخور والرمال، حيث تبتعد المشاهد شيئا فشيئا، وعند سفوح المنحدرات، ستقع عيناك عند بعض الصدوع الجيولوجية التي تنبجس منها بعض الينابيع، على قريتين أو ثلاث بنيت من التربة المحلية نفسـها وعلى مزارعها الصـغيرة التي يصلها الفلاحون بصـعوبة ويفلحونها بصعوبة، كما سـترى هنا وهناك قبة زرقاء لمسـجد، أو بقايا سـور مجهز بفتحات، وبعض البسـاتين، وبعض صفوف أشجار الحور، وعلى مسافة من ذلك كله بعض تجمعات الأغنام، مشـهد يذكرك بالحكايات والأسـاطير فكل شيء معد للقاءات بين ملوك وراعيات حسناوات.

داخل هذه القرى نرى الرتابة والضـخامة في إطار من البساطة، وهما العنصران الموجودان لأكثر من ألفي سنة في المعمار الإيراني.

في البدايـة هنـاك الدائرة تقوم فـوق المربع، وهو طـراز وحيد للأبنية الأكثر تواضعا ـ ملاجئ الرعاة وقبور الأولياء المحليين ـ حيث تشاركها في ذلك طرز الأبنية الأكثر اتساعا ـ والمزارع الكبرى والحظائر أو المساجد.

انحـدر هذا الطـراز بلا شـك من طراز معابـد الساسـانيين في فجر الحقبة المسـيحية: أربعة أعمدة ضـخمة ترفع فوقها قبة نصف أسطوانية وفي وسـط الصـرح يقوم الموقد الذي تشـتعل فيه النـار الأبدية، لعل هذا الطراز يقتبس معناه الأسـطوري الغامض من لقاء السماء الدائرية -كما يعـرف كل منـا- بالأرض المربعة (وهذا ما يفسـر أن الحقـول تكون عادة مربعة وأن هناك أربع جهات أساسـية)، وربما هذا ما دفع حكماء الصين القدامى ليعبروا عن دورهم في الربط بين الأرض والسـماء إلى استخدام

قبعـات دائرية وأحذية مربعـة، هذه الأبنية تقدم ـ كمـا يقولون ـ مقاومة للهزات الأرضية أفضل من الأبنية ذات السقوف البسيطة المسطحة.

وقد تبنى المعماري المسلم فيما بعد هذا الشكل (وكذلك بيزنطة التي قادها اقترابها شيئا فشيئا من الأسلوب الروماني إلى القديس بطرس في روما، لكن هذه قصة أخرى) وارتقى به وجعله أكثر رشاقة، ولعب بمهارة لربط الزاوية القائمة، عند كل قرنة، والصاعدة من الأرض بجزء الدائرة النازل من السماء، وكذلك تخلصت القبة من شكلها البدائي المدبب وكأنها الزجاج المنفوخ، فأضيف إليها طبقتان مسلحتان يغلفانها لحمايتها ولتستطيع أن تقاوم أكثر، كما أدتا دوراً تزيينيا إضافيا وكانت إحدى الطبقتين داخلية والأخرى خارجية تنتهي بتكوين يشبه البصلة من القيشاني، وتُغَطى الطبقتان بالقيشاني بأشكال حلزونية نباتية وكتابية: شكل الأرض منقوشة في السماء وألوان السماء تهبط نحو الأرض وهكذا يتحقق لقاء العالمين.

أما القسم الآخر فهو الرواق، وهو مكان متوسط الحجم يقع بين القسم الداخلي والخارج ليشكل بذلك ممراً بين عالمين هما في آن واحد متناقضان ومتكاملان، إنما هذه المرة على المستوى الأفقي: المجتمع الخارجي والحميمية العائلية، إنه مكان انتقال رمزي ووظيفي أيضاً: ففيه تتأقلم العين بين الخارج بضوئه المبهر غالبا والداخل المعتم تنيره فقط فتحات ضوء ضيقة، واستمراراً لهذه الأقلمة الموروثة من الماضي ما زال الناس فعليا حتى الآن يسمحون لقليل من نور النهار أن يدخل الغرف حتى في البيوت والشقق الحديثة.

واختصـر الـرواق في البيـوت الأكـثر تواضـعا إلى دعامتـين مربعتي الشـكل من الخشـب ترفعان رفرفا فوق الباب، وعند استخدام عدد أكبر من الأعمدة يحصـلون على نوع من الشـرفة الصغيرة، أما الحالة الثالثة فهـي اسـتخدامهم لعـدد أكبر مـن الأعمدة إنمـا هذه المرة مـن الحجر، وأكثر ارتفاعا من سـابقتها وأسـطوانية الشـكل فيصـبح لدينا «الأبادانا في بيرسـيبولي»[1] وهي صـالة كبيرة تزينها أعمدة أسطوانية تفضي إلى أجنحـة الملك داريوس، وصـالة الانتظار الكبرى التـي ينتظر فيها النبلاء ورجال البلاط لمقابلة مليكهم، ترى هل أقام هناك الإسـكندر وليمته قبل أن يضـرم النار في المكان؟ ربما. يكون ذلك صـحيحا إذا اعتقدنا أن آثار الحريق البادية في المكان تعود إلى زمن الإسكندر: فسقف الخشب وسجاد الجدران المعلق على الأعمدة وكأنه فعلا واقيات شـمس اسـتجابت سريعا لاندلاع النيران.

بعـد ألف عـام من هذا الحـدث التاريخي، أصـبح الرواق يصـنع من خشـب الأرز، واتصـف بالضـخامة ولكنـه أصـبح أكـثر قربا من السـلّم الإنسـاني، ويوجد في أصـفهان سـرادق يسـمى سـرادق الأربعـين عموداً (وهي في الحقيقة عشـرون، أما العشرون الأخرى فهي ليست أكثر من ظل العشـرين الأولى انعكسـ في حوض الماء أمامها). وفي ذلك السـرادق كان الشـاه يسـتقبل الحكام الأجانب، وهناك أخيراً القصـر الملكي الذي يطل على الميدان الكبير في المدينة تعلوه شرفة كبيرة مسقوفة أيضاً من خشب

(1) هـي صـالة العرش لـدى الملـوك الأخميديـين، في بيرسـيبولي وهي إحدى عواصـم الإمبراطوريـة الأخميدية أسسـها داريوسـ الأول (486-521 ق.م) أحرقت عام 330 قبل الميلاد وهي غنية بالآثار.

الأرز الملون حيث يخرج الشاه إليها من جناحه بغية تأمل الحشود البشرية ويستعرض مواكب جيشه، وألعاب الفرسان، والقباب والمآذن التي ترتفع فوق المساجد.

وبعد مئة عام من ذلك الحدث، وفي حكم الملوك القاجاريين كان الملك يقف تحت رفرف يرتفع بضع درجات وينصبون أمامه عندما يشاؤون ستارة وفق التقاليد المتبعة لظهور الملك أيام الأعياد، جالسا متربعا فوق «سرير ـ عرش» ضخم من الرخام مرصع بالجواهر، تحيط به عائلته والحلقة الأولى في البلاط، ليطلّ على حديقة يتجمع فيها ممثلو الجيش والأجهزة الرسمية ورجال البازار وربما بعض أفراد الشعب، وهو -تقريباً- نفس تقاليد «الداربار» الهندي[1] التي أخذت أهميتها زمن ملوك المغول وتجدد استخدامها من قبل الإنكليز زمن إمبراطورية الهند.

ولكن فكرة الرفرف الأمامي كمكان للانتقال بين الداخل والخارج عرفت في الحقيقة مصيراً آخر، حيث اتخذ رفرفاً مبنياً من الحجر أو الآجر ـ ولكنه مقبب هذه المرة ـ يتقدم البناء الرئيس ويمنحه إطلالته على الخارج، وقد استخدم الساسانيون هذا الطراز في كل قصورهم، ثم أحياها الإسلام أيضا ملطفا إياها بتحويلها إلى قوس قوطي، فقدم لنا بذلك الإيوان الفسيح الذي يمتد على الجوانب الأربعة للساحة الداخلية في الجوامع الإيرانية الكبيرة، وكان يكتفى بتزيين القسم الأكبر من الإفريز دون أن ينفتح على شيء ولا يقدم أي خدمة أخرى سوى أنه مكان للقيلولة.

(1) حركة الداربار هي انتقال موسمي لحكومة جامو وكشمير الهندية صيفا إلى العاصمة الصيفية سيرناجار وشتاء إلى العاصمة الشتوية جامو. (المترجم).

وكي نذهب إلى نهاية الروح الوظيفية للفسحة في العمران الإيراني، يجب علينا أن نشير أيضاً إلى عنصرين آخرين أساسيين هما حوض الماء والسور.

بالنسبة لحوض الماء، يسيل الماء غالبا من الجبل عبر قناة طويلة تحت الأرض، ويشير الحوض المائي إلى استمرار الحياة طالما أن كل شيء يتركز حوله، كما أنه المساحة التي تنعكس عليها السماء وكل الأشياء التي ترتفع في الفضاء (الأعمدة، أشجار السرو، سرادق الموسيقى)، وهو المكان الذي ترده العصافير لتشرب، ويوجد حوض الماء بين مكان وآخر في الساحات العامة، ولكن مكانه الحقيقي هو الساحات الخاصة: أفنية منزل السيد ثم الحدائق الفارسية التي تشكل القلب الذي لا مفر منه، وعندما نقول القلب فهذا يعني أنه يضم على الأقل قناة واحدة منظمة كي تدفع الماء في رشّات متلاحقة أو على شكل شلالات صغيرة، ويضم هذا القلب أحياناً قنوات عديدة وأحواضا ثانوية للاستفادة قدر الإمكان من انحدار الأرض. وفي الواقع، يتركزقسم مهم من السكان في سهول السفوح الممتدة بين الجبل والصحراء، ونرى ذلك بشكل خاص في طهران.

واجتماع العناصر الثلاثة التي أشرنا إليها وهي بناء الدائرة فوق المربع، والرواق، والحوض يخلق فردوسا صغيراً، ولكي يجعلوا هذا الفردوس دائماً لابد من إضافة عامل رابع، وهو السور. والهدف الأول من السور هو إبعاد الحيوانات الضارة، ولهذا السبب تسوّر العديد من الحقول الصغيرة بحائط منخفض، وتسور البساتين البسيطة بحائط مرتفع، وهذا يكفل

إيجاد مدى جغرافي يتمتع بالحماية، ويسمح بالاحتفاظ بالماء النادر بشكل أفضل. كما يمكن بواسطة هذا السور السيطرة على الحشرات والقوارض كما يمنع قطعان الغنم والماعز الشرهة عن التهام المزروعات.

وقد عانى الآثاريون الفرنسيون في بداية أعمال التنقيب التي قاموا بها لاستكشاف مدينة سوس[1]، من تعديات اللصوص، وكثيراً ما كانوا من ضحاياهم. وقد انتهى بهم الأمر لحماية أنفسهم إلى بناء ما يشبه قصور القرون الوسطى عند موقع التنقيب، وما زال هذا القصر (الذي بني جزء منه بالآجر الأخميدي) يثير حتى اليوم إعجاب الزائرين بقدر ما يثيره قصر داريوس.

أما الخانات فلها مدخل واحد، وقد بنيت أيضا على طراز القصر الحصن، ويضم البيت الفارسي التقليدي فناء أو عدة أَفْنِيَةٌ داخلية ويحميه جدار عال أصم أي من دون فتحات، ولا يمكن النفاذ إلى البيت إلا من مدخل واحد يفضي إلى الخارج عبر باب ضيق، ولكنه ينفتح على الداخل عبر عدة أبواب داخلية يفضي كل باب منها إلى قسم معين في البيت: جناح السيد، قسم الحريم، والقسم العام، أما بالنسبة للحديقة فهي بالضرورة مكان مغلق، وهي الطريقة الوحيدة لحمايتها من محيطها المجدب، وفي الحديقة يتركز الماء وتزينها النباتات الخضراء، والظل، وفيها تزرع الورود وتتفتح الأزهار، وترفرف العصافير وفيها يطير الفراش.

---

(1) سوس: أو شوش مدينة في خوزستان عاصمة عيلام دمرها هانيبعل آشور سنة 646ق.م. جعل منها داريوس الأول عاصمة للأخميديين، فتحها العرب وازدهرت في عهدهم، عثر بين انقاضها على تيجان أعمدة ونقوش وتماثيل ومصوغات.

في تلك الحديقة تجد نفسك فعلاً في الفردوس، ولكن الكلمة تعني لدى اليونانيين أرضاً مسوّرة واسعة مجهزة لمسراتهم التي كان يقدمها لهم الأخميديون، ثم الساسانيون، وكانت واسعة جداً لدرجة أنه كان بإمكانهم إطلاق الحيوانات البرية فيها ثم مطاردتها على الجياد بغية اصطيادها على أنغام الموسيقى، وهذا ما يمكن أن تراه في التضاريس الصخرية الواطئة في طاق بستان القريبة من كرمنشاه[1].

وبالتأكيد ما سأقوم بوصفه يعكس نوعا من علم الظاهر الموروث من فن العمارة الإيرانية، لكن الحقيقة هي بالتأكيد أكثر تشوشا واضطرابا. ففي الريف إلى جانب تلك البيوت التي تحدثت عنها سابقا، تجد مبان إسمنتية تتصف بالقبح، حيث تغطي جدرانها إعلانات الشامبو ومواد الاستحمام وزيوت السيارات، وقد تلاشت او كادت الحدائق الفارسية الجميلة، ما عدا استثناءات قليلة ـ أو أنها في حالة يرثى لها، والفردوس الوحيد الباقي والذي مازال واقفا على قدميه يبعد ستين كيلومتراً عن طهران ومازال سوره قائما على امتداد خمسة أو ستة كيلومترات ويضم داخله زراعات سبخية وفي جزء منها مزروعات البيوت البلاستيكية ومخازن الفضلات.

وفي القرن العشرين أيضا اتسعت المدن بشكل استثنائي يرافقها هجرة عشوائية إلى المدن، لقد تجاوزا كل الخطط المدينية (كان هناك العديد منها ولكنها سرعان ما لفها النسيان). أما المواد التي وزعوها في ساحات هذه المدن لتزيينها فهي نصب واقعية اجتماعية من نبات الشمشاد المقصوص على شكل حيوانات متعددة، حمامات السلام التي تشبه في

(1) طاق بستان: فيها بقايا البلاط الساساني وأعمال ري ونقوش تمثل مشاهد الصيد.

حجمها فراخ الدجاج، وأشجار نخيل بلاستيكية مضاءة، كل ذلك من بنات أفكار البلديات المحافظة، إنها -بصراحة- أشياء تدعو للضحك.

ونجد البناء العشوائي يشوه الأعمال الجيدة لا التقليدية منها فقط بل وحتى الأعمال الأكثر حداثة مثل (الفيلات) الجميلة التي استخدم في تزيينها فن الديكور وتمثل الطراز الحديث في طهران، والتي لم نعد نراها إلا بصعوبة كبيرة، والمساجد الحديثة نسخة مشوهة عن الماضي، ولكن ما هو أسوأ حدث غالباً عن طريق الترميمات الكبرى للصروح القديمة والمولة من تجار متدينين أو القيمين الدينيين عليها. لقد أساء ذوق الراعين الجدد لهذه الصروح إلى الأبد لأنها لم تعد إلا ظلا للنسخة الأصلية.

وأخيراً، ننسى كل هذا عندما نقف أمام جمال أصفهان الساحر، ففي المسجد المسمى بمسجد الجمعة حيث تنعكس عشرة قرون من فن العمارة الفارسي بدءاً من الصالة الساسانية المقببة (وبالتالي فهي قبل الإسلام) إلى الأعمدة الضخمة (أجواء الناووس الروماني) وانتهاء بالاندفاع المدهش للأقواس القوطية الصفوية، ومرورا بالقبة الشمالية التي بنيت في القرن التاسع عشر ذات الخطوط القاسية واللون القاتم تقريبا ومن الحجم الوسط والتي لا تترك أي انطباع لدى النظرة الأولى، ولكنها تفرض بعد ذلك نفسها بالتدريج على المشاهد، وكأنه يقف أمام مغناطيس. وقد اهتم آرثر بوب المؤرخ الكبير للفن الإيراني بهذه القبة بشكل خاص باعتبارها أجمل تجسيد لفن العمارة في إيران لأنها ترمز إلى اكتمال المسألة الفنية المثيرة للقلق وهي تطعيم الدائرة بالمربع وفق تقنية جريئة وجمالية تتحدى الزمن.

بعد ذلك يأتي القصر الملكي وهو بناء يشغل الأضلاع الأربعة لمستطيل حيث يتألف كل ضلع من أسواق ومحلات تجارية وله فتحة كبرى ترتبط هي نفسها بصرح كبير، ففي الجنوب يقع جامع الشاه الكبير وهو الأثر الإسلامي الغامض لكاتدرائية تشارتر، وفي الغرب قصر الشاه المشوق بشكل مدهش، والذي يطل عليه مسجد بطريقة تلفت الانتباه وكأنها تعبير عن خضوع الزمني للروحي، وفي الشرق مسجد الشاه الخاص، وفي الشمال المدخل الرئيس للبازار. وقد زود المكان بأربعة أواوين، ليأخذ بعد ذلك شكل فناء داخلي لمسجد ضخم، وقد دعاه الشاه بلوحة العالم، لذلك يستطيع المرء أن يحدث نفسه أنه عندما رسم الشاه هذه الصورة لأساطير روسية فلأنه أراد أن يكون مفهوماً لدى كل من يراه أن العالم كله موجود في أعماق المسجد الكبير.

أما العيد فيحتفل به على طول ضفتي نهر أصبهان وفوق جسور النزهة ذات القناطر وحوضه المائي الكبير، وضفتيه المكسوتين بالأشجار الخضراء حيث يتفرق المتنزهون بينها لتحجبهم عن عيون الآخرين، ويشكل مجموع هذه المشاهد الحديقة الفارسية الأكثر جمالا والأكثر اتساعا وتعطي انطباعا أوليا عن الفردوس.

ليس في هذه القمم وحدها، وإنما أيضاً في بيوت القرية البسيطة وفي ظل كل العوامل المشتركة التي توحدها، فإن فن العمارة الفارسي البسيط والنبيل في آن واحد مثل المشاهد الطبيعية التي تحيط به، جسد انسجام العالم على المستوى الإنساني، فالمادة الأكثر بساطة، وهي الآجر تشكل له ما يشبه النوتة الموسيقية التي تعزف بتوافق لا ينتهي لتجعلنا نتمايل على أنغام وحدة الإنسان والطبيعة، وتلتقي مثل الموسيقى بالمقدس.

4

مجد البازار

في (البازار)، يصبح الفرد لا شيء، والمجموع هو كل شيء، فالعائلة التي تمسك بالمحل التجاري تأتي أولا، والاتحاد الذي ينهي الخصومات وينظم العروض، وأيام العيد القادم، كل هذا يدير في النهاية مجتمع البازار بأكمله: الأبنية الإسمنتية المتتابعة التي تعطي المشهد شكل مساكن النمل الأبيض.

وتأكيدا للوظيفة الثلاثية القديمة الهندوأوروبية والتي سلط عليها النور جورج دوميزيل[1]، فإن البازار ليس بعيدا أبدا عن عاملين آخرين الأول هو(القساوسة ـ الملالي ـ البراهمات) والثاني (المحاربون ـ الحكام ـ الكشاتريا[2]). ويرتبط البازار في أصفهان بالقصر الملكي الكبير بشكل وثيق، إذ يقع بمحاذاته وحتى في مواقع تغلف القصر ومساجد الشاه. وفي طهران تؤدي أزقة البازار مباشرة إلى الفناء الداخلي للجامع الملكي الكبير، ومع الزمن كان يكفي أن تجتاز شارعا كي تمر من الجولستان وهو مكان إقامة الملوك القاجاريين إلى أزقة البازار، وإذا كانت المسافة بين

---

(1) جورج دوميزيل (1986-1898) فيلسوف فرنسي وعالم لغوي ومؤرخ وباحث في الديانات الهندو – أوروبية. وفي رأيه أن كل هذه الديانات تضم في أصولها الأيديولوجية ثلاثة عوامل هي: الطقوس، والأساطير، والتنظيم الاجتماعي، وهو يرى أن كل النشاط الديني في المجتمع ينقسم إلى ثلاث وظائف: الروحية والعسكرية والانتاجية.

(2) الكشاتريا، الطائفة الثانية من الطوائف الأربعة التي تشكل الهند وهي في الأصل طائفة ملكية ومحاربة، في العصر الحديث تحول أبناؤها إلى مهنيين وإداريين وشخصيات عسكرية.

المكانين قد اتسعت اليوم فذلك لأن ملوك بهلوي قد قضوا على الساحة المسورة التي أوجدها أسلافهم كي لا يحتفظوا سوى بقلب كتلة البناء: الأجنحة الملكية وصالة التتويج.

هناك مصيبة إضافية أسهمت في التشويه، فقد سحقت هذه الآثار المعجزة في مشاهدها بأبنية خلفية متواضعة تماما تستخدم كإدارات وستضر بالبناء التاريخي مع مرور الزمن، وعلى بعد رمية حجر من مخرج القصر تقع ـ كانت وما زالت ـ ساحة -رغم أنها تعرضت لتشويه كبير- تقود إلى المدخل المغطى والأكثر جمالا للبازار، وفي تلك الساحة يصنع الرأي العام، وعندما تسيطر الغوغاء عليها، تجعل الملوك يرتجفون.

ولكن بازار طهران يملك الكثير من المداخل الأخرى في الأضلاع الأربعة التي يشكلها، و يغطي ما يزيد على أربعة كيلومترات مربعة، إنه عالم لا يدخله المرء من حيث المبدأ إلا ماشيا، فالمداخل مزودة بممرات عبور متعرجة لهذا الغرض، و على الرغم من الحجم الكبير لزبائنه فستجده مكانا دائما لتجول الحمالين ودافعي العربات اليدوية.

وهذه العربات، وكلها من طراز واحد، عبارة عن لوح خشبي بسيط وأربع عجلات فوق محور ثابت ومزودة من الخلف بعارضة لدفع العربة، ويعطيها ثبات اتجاه العجلات صعوبة في الاستدارة يمينا أو يساراً، ولتقوم العربة بهذه الاستدارة يجب رفع العجلتين الأماميتين عن الأرض بحيث يضع سائق العربة كل ثقله على العارضة دافعا إياها نحو الأسفل، وبدفعة عنيفة ينقل ثقل العربة إلى العجلتين الخلفيتين فيديرهما حيث يشاء.

لماذا لم يتطور هذا الطراز البدائي؟ ربما لأن ثباته قد ضـمن استقامة مسـار العربة، وكفل بذلك أيضا ثباتا أكبر بسبب الأوزان التي ينوء بعبئها الحمالـون، هـذه الأوزان التي تكون أحيانا أكثر مـن ثقيلة، وتنطلق العربة أحيانا بسـرعة كبيرة في أزقة البازار الضـيقة، يدفعهـا حمالون ببناطيل منفوخة، وتجدهم دائما في عجلة من أمرهم (لا شك أنهم يتقاضون أجرا إضافيا على هذا الاستعجال). إنهم يدفعون عربات يصعب إيقافها، وعند اقترابهم من المارة وعند أول نداء يطلقونه يقوم كل رجل وامرأة بسـرعة ودون نقاش بإفساح الطريق للعربة المندفعة.

هـذه هـي العربات الشـهيرة في بازار طهـران، إلا أنه يمـر بين الحين والحين دراجات نارية صـغيرة ترتفع مسـافة ذراع فوق الحواجز المتعرجة عنـد المداخل لتصـبح داخل السـوق، كما نشـاهد أحياناً سـيارات عادية وسـيارات شـحن صـغيرة فتحتل عرض الأزقـة، إلا أن هذه السـيارات لا تدخل السوق إلا خارج أوقات العمل حيث ترفع الحواجز كي تسمح بدخول البضائع الأكثر ثقلا، ومواد البناء وسيارات الإطفاء وسيارات القمامة.

هذا هو إذاً عالم البازار بمداخله العديدة وحواريه الضيقة ومنعطفاته وسـاحاته الداخلية التي تكشف عن طوابق عديدة، وخاناته التي تستخدم الآن كمستودعات، وصالاته الفسيحة بقبابها ذات الطابع الأثري الضخمة فهـي مغطـاة هنا بالخـزف المزخـرف بينما تكـون في مكان آخـر جرداء كالحـة وكأنها سـجن بيرانيـز[1] وعند مداخـل أحياء معينة نجـد أبوابا ضـخمة لدرجة أنها تشبه أبواب الحصن (القصر)، ومع ذلك فهي تفتح

(1) بيرانيز اسم سجن كوني، في و رواية ساخرة بقلم الكاتب الإيطالي ميلو منارا (من مواليد 1945).

وتغلق يوميا. ويتميز البازار أيضاً بمساجده الاثني عشر وأماكن الصلاة الأخرى، وحتى بكنيسته، إنها كنيسة صغيرة جداً على الطراز الريفي بساحتها الصغيرة التي تضم بعض القبور لمتوفين إنكليز من التجار او الإداريين، أو إنكليزيات كنّ يرافقنهم، وكذلك قبور أطفال توفوا في المهد في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

إنه عالم من الفوضى المنظمة، طالما أنه يتوجب على كل امرئ أن يجد ما يسعى إليه في الأقسام المختلفة للبازار، كل قسم حسب اختصاصه، فبعض هذه الأقسام مخصصة للأقمشة، وبعضها للسجاد، وغيرها للأدوات المنزلية، وحاجات الطلبة، وأدوات المائدة والمطبخ، والسلاسل والأقفال ومكنات الخياطة، والملابس الداخلية والساعات والعطور ولوازم الصلاة والجواهر، والأحذية، ولوازم الممثلين في المسرحيات الدينية: خوذ، أسلحة رياش، وملابس أسد محنط... وماذا أقول! إنه عالم يأتي إليه الناس لأنهم متأكدون تقريبا أنهم سيجدون فيه ما لن يستطيعوا العثور عليه في أي مكان آخر، وقد تطلب شيئا في المدينة فلا تجده فيقول لك تجارها بشيء من الاحترام البادي في نبرة صوتهم: من أجل هذا عليك الذهاب إلى البازار...، وتسأل: «أي بازار؟»، فيجيبونك «البازار الكبير».

وقد جرى تخفيض ساعات عمل البازار، فالحركة لا تدب فيه صباحا إلا نحو الساعة العاشرة، ويبدأ بالإغلاق مساء في الساعة الخامسة وأحيانا قبل ذلك بكثير في ليلة عيد ما، وبهذا تخلو الممرات، ويبدأ إغلاق البوابات الكبيرة لتعزل الأحياء عن بعضها، وتطفأ الأنوار، فيسرع كل امرئ نحو المخرج، وهناك الكثير من الأعياد في إيران: أعياد ميلاد الأئمة وأعياد وفاتهم بما فيهم الإمام الخميني، وذكرى الأحداث المختلفة في حياة

الرســول ﷺ والمناسـبات الوطنية الرسمية للثورة الإســلامية، ولكن على الرغم من أن ســاعات فتح الأســواق محددة، إلا أن ساعات العمل وكذلك الأيام طويلة، ســواء في نظر من يعمل منهــم ـ وهم الحمالون ـ أو لمن هم في وضــع معاكس مثل تجار الســجاد الذين يقتلهم الملل،جالسين في أعماق محلاتهم يحتسون كأس شاي بعد كأس شاي.

أما قلب البازار في طهران، وجوهره، وســبب وجوده فهو الســجاد حيث يحتل ســوقه ثلاثة أحياء تشــكل مساحتها خمس مســاحة البازار، ترى كم عدد قطع السجاد الموجودة في بازار طهران؟ الملايين... كم يبلغ عدد العقد التي تنســج عقدة أو عدد الأزهار المصممة بصبر والتي تحاك على سطوح هذه الكتلة الضخمة من السجاد؟ سوف نحصل على أرقام غير نهائية.

وســواء كانــت هذه الأكــوام من الســجاد مكدســة في الفنــاءات أو في الأقبية، أو مكومة في محلات من مختلف الأحجام، كبيرة وصغيرة، قديمة وحديثــة، وســواء كانت الحياكة قد جــرت تحت خيمة أو في مصــنع فإنها تنتهي دوما بمشهد التاجر جالسا وراء مكتب خشبي متواضع أصبح لقدمه خــارج الزمن، وهاتفــه المحمول على أذنه أو في يده، وتطل من فوق رأســه صــورة والده المتوفى باللونين الأبيض والأسود، وينتظر السجاد، وصاحب المحل، ووالد صــاحب المحل الزبــون، إنما يكون الانتظار لطلبات الشــراء بالجملة عن طريق هاتف من هامبورغ ونيويورك أو من أماكن أخرى حيث يقيم أخ أو ابن عم رغما عنه ويدير محلا يماثل هذا المحل.

هل تريد صــورتك وقد حيكت على ســجادة؟ هذا أمــر ممكن، وكل ما يلزمك صــورة لك تنقل إلى الحاســوب، أم هل ترغب سجادة حيك عليها

لوحة «المشهد» للفنان ليوراندو دافنشي أو لوحة نابوليون في سان برنار أو تمثال النبي موسى فوق صخرته أو أسطورة أستير وماردوخ؟ أم تريد صورة لثلاثة جراء صغيرة جلست في سلة؟ ليس هناك مشكلة، كل ذلك ممكن التنفيذ. أما إذا كنت تملك سجادة لم يبق فيها من السجاد إلا الاسم بل استحالت بالأحرى إلى قطعة من الخيش، شوهتها الثقوب وأكلها العث فصارت ظل سجادة، فالحل هناك، في أعماق زقاق معتم حيث يجلس القرفصاء وسط شلل من خيوط الصوف، عامل مختص بإصلاح السجاد يعمل ليلا ونهارا كي يعيدها لك بعد بضعة أسابيع سجادة رائعة تضمها إلى مجموعتك المختارة وتثير إعجاب الناظرين من زوارك.

لا يوجد في هذا العالم الخاص ما يدعو للعجلة، طالما أن الثروة المتمثلة في البضائع المخزونة سوف تأتي من ازدياد قيمة هذه البضائع مع مرور الزمن، ويدهش الرجل الأجنبي من غزارة المخزون في إيران بالمقارنة مع إيقاع البيع، ولا تستخدم هنا مواسم التخفيضات، حتى فيما يتعلق بقدم الطراز أو حداثته، ولا تجري أبدا تصفية شاملة بسبب إغلاق مؤقت أو نهائي، وفي حالة وقوع مصيبة يستأنف كل شيء من جديد، وفي حضن العائلة إن كان ذلك ممكنا، حيث تعود دورة كل شيء، وقد تعيش العائلة يوميا على القليل جداً وتدخر ريالا إثر ريال حتى يصبح بالإمكان استثمار المبلغ في نفس الفرع التجاري أو في فرع آخر، وخاصة في ميدان العقارات المتنوعة: شقق أو عمارات، لا يهم أن تنام دون عائد عدة سنين، لأنها كالسجاد ستزداد قيمتها مع كل حركة لبندول الساعة.

وفي زمن غير بعيد، وذلك قبل الإصلاح الزراعي، كان التجار يشترون الأرض الزراعية، وكان تاجر السجاد يستطيع أن يسيطر على عدة قرى

وأحيانــا على «مقاطعة» بكاملها. لقد تدفقت الثروة أخيراً في أعقاب حياة طويلة قضاها في أعماق محله، أصبح التاجر قادرا، بل أصبح من واجبه أن يندفع نحو الأعمال الباقيات: بناء المساجد، تجميل الأماكن العامة، ودون أن ننســى رعاية بعض الملالي وتلامذتهم، والتبرع للمؤسســات الخيرية. ويقوم أخيراً ببناء مسكن يليق به كوجيه من وجهاء المدينة، يضم أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة فناءات داخلية تسمح بالسكنى لأفراد عائلته الذين يمثلون ثلاثة أجيال.

وهذا ما نراه على وجه الخصــوص في المدن الكبرى المنتجة للسجاد في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مثل كاشان ويزد، وفي الحقيقة كل مدينــة أخــرى من مدن إيران، ويعيش تاجر الســجاد حتى ولو كان من مستوى متواضع حياة أرستقراطيي التجارة، وأذكر أن أحدهم قد علم أن الســفارة الفرنســية كانت بصدد بيع مبنى صــغير في الريف لم يعد لها به حاجة، فكان يســعى إلى شرائه،لكنه توقف عند حد معين في المزاد فخسر الصــفقة. قــال لي: «أتعــرف لمــن باعتــه في النهاية؟ إلى تاجــر حبوب في مدينتي، هذا إهانة لشرفي». وارتسمت على وجهه علائم ألم حقيقي.

كل ذلك لن يســمح لي أن أنســى الهند غير البعيدة في كل المقاييس عن هذا المشهد ونظامه الطائفي، فحتى لو غير المرء مهنة آبائه، حتى لو أصبح عالما أو مهندسا أو وزيرا فسيبقى طوال عمره ابن تاجر سجاد، أو ابن رجل أمن أو حتى ابن ملاّ أو ابن عســكري، وكما في الهند تجري الزواجات هنا وفق الطبقات والفئات. وكما في الهند نجد هنا ما أشــار إليه المؤرخ لويس دومــان من أن أحدا لا يقع خــارج الهرم الاجتماعي، فالكل مندمجون فيه إنما على قاعدة تراتبية عتيدة، ويستطيع كل فرد في المجتمع أن يجد مكانه

في هذا الهرم، مكانه الحقيقي بشـرط ـ وهذا متفق عليه ـ أن يتمسـك به ولا يسعى وراء تعديل سلم الطبقات والقيم.

وكل شـيء في البـازار متماسـك ليشـكل كتلـة واحـدة بـدءا مـن الحمالين وانتهاء بالتجار من أصـحاب الملايين، والناس هنا متنافسـون ومتضـامنون في آن واحد: متنافسـون إنما كل فئة داخل سويتها الخاصة بها، ومتضـامنون بشـكل واضـح فيما إذا اعتدي عليهم بشكل جماعي، مـن قبـل موظفي الخزينة مثلا، ومتضـامنون من سـوية ما تجاه سـوية أخرى وفق أحكام الحماية الجماعية، والولاء للتسلسل التراتبي، ولكنهم أيضـا متضـامنون مقابل ثمن باهظ، فالحمالون يسـتطيعون الاقتراض من التجار ولكن مقابل أرباح ربوية. وتعقد الصـفقات في كل المسـتويات شـفاها، فلا حاجة لأختام ولا أوراق لأن كل امرئ يعرف أن أي انحراف عن الكلمة التي قطعت سـوف يؤدي إلى الطرد خارج النظام وهو بالتالي نوع من الموت المدني.

من المسـتحيل أيضـا أن تسـرق مـن البازار ولو دبوسـا صـغيراً، لقد شـاهدت مرة شـيطانا صغيراً بائسـا يختلس شـيئا تافها من المعروضات وسـمعت صـرخة التاجر، ورأيت زملاءه يندفعون فجأة كسرب من كلاب الحراسة وراء السارق ويمسكون به خلال لحظات ويشبعوه ضربا بالعصي حتى سـال دمه وتكوم جثة هامدة على الأرض، وكان من المستحيل التدخل لإنقاذه، وكما قال أحد الذي شـاركوا في الحـادث الذي لم يتجاوز الدقيقة الواحدة «من الجنون أن يفعل أحد هذا ـ يقصد السرقة ـ في البازار».

لقد تجاوز البازار الكبير حدوده المكانية واجتاز منذ فترة طويلة الجادات الأربعة ذات الزوايا القائمة التي تمثل رسميا محيطه التاريخي. فقد امتد إلى شارع هنا وزقاق هناك، وأحيانا إلى أرض قفراء كان يشغلها باعة الدواجن والطيور الملونة وفراخ الدجاج الصغيرة التي يلونها الباعة بأصباغ خاصة بالأخضر أو الزهر، كما كانت تباع هناك بشكل خاص العصافير المغردة التي يعلق تجار البازار أقفاصها عند مداخل محلاتهم.

وبسبب هذه الغزوات المفاجئة امتد البازار في كل أرجاء المدينة على شكل ثآليل هنا وهناك مشكلا بذلك مجموعة من الجزر، وأصبح هناك حي للأحذية، وآخر لملابس الأطفال، أو الأثاث المتعدد الأذواق، واستمرت المحلات ملتصقة الواحد منها بالآخر، بحيث يستطيع المرء أن يرى مثلا ثلاثين دكانا للأحذية النسائية على رصيف واحد من الحي ومثلها على الرصيف المقابل، وإذا ما صعدنا باتجاه شمال المدينة سنلاحظ أن المشاهد الشرقية للبازار تتلاشى بالتدريج ليصبح النموذج الغربي هو السائد حتى ليعتقد المرء أنه في المحلات التجارية أو في مركز تجاري في أوروبا أو أمريكا. أما داخل هذه المحلات فيبقى محتفظا بنفس المشهد فالأخ قد أرسل ليدير المحل الجديد شمالي المدينة، وتراه قد أصبح حسن الهندام، حليق اللحية، مكوي البزة، بينما بقي الشقيق الآخر في أحشاء البازار الكبير ليدير ويحافظ على المحل القديم، ويستطيع الأخوان في كل لحظة أن يتبادلا الموقع فيحل الواحد منهما محل الآخر.

أخيراً، هناك بازار تجار التحف القديمة أو بالأحرى تجار العاديات. ويتجسد هذا البازار في كيانين، هناك في البداية شارع تتفرع منه ممرات

ومحلات داخلية حيث يختلط فيها القديم بالمقلد، والقطع الأثرية الأصيلة بالمزورة والمزيفة، والتي يخرجونها لك ملفوفة بأوراق صحف قديمة أو قطع من قماش الشيفون بعد أن يغلقوا باب المحل حذرا وحيطة، ويقع محل ملك الشارع قبالة السفارة الإنكليزية حيث تستطيع بالكاد ان تأخذ طريقك في دكانه بسبب أكوام البضائع التي تعود لكل العصور أو كما يزعم. يستقبلك البائع محييا، ثم يبدأ خطابه الذي يمهد فيه للصفقة، وذراعاه مرفوعتان للسماء برهانا على صدقه، وهو يوجه إليك عبارات الاحترام الإمبراطوري، ثم يمسح دمعة سالت على خده وهو يشير بإصبعه إلى صورة والده تضيئها ثريا بسبعة أذرع، ثم يصعد درجا ثم يهبط منه، حاملا إليك صورة لولوبريجيدا أثناء زيارتها لمحله يعرضها عليك تأكيداً لهذه الزيارة كما يحدثك عن زيارة الجنرال ديغول للمحل، إنما هذه المرة بدون صورة. ثم يضاعف بحيوية عمر القطعة التي يعرضها عليك مرتين أو ثلاث. ولا تجد عنده شيئا إلا ويعود تاريخه إلى ما قبل الصفويين وعلى وجه الدقة إلى زمن القاجاريين، حتى تلك اللوحة التي رسمت قبل خمسة عشر يوما والتي ما زالت رائحة الزيت تفوح منها تنطبق عليها نفس المواصفات، كما يضاعف مرتين أو ثلاث مرات السعر التجاري لكنوزه ثم يصيح: إنك تذبحه وهو يتنازل لك إلى نصف السعر، وينتهي به الأمر وهو يفرك كفيه أن يبيعك بسعر معقول إلى حد ما، إنه موسى بابا، ملك الغجر.

أما الكيان الآخر، فهو سوق باعة المنوعات، أو سوق الجمعة، ويعقد في موقف واسع للسيارات تحت الأرض يخلو من السيارات في عطلة نهاية الأسبوع، ويتكدس في هذا السوق آلاف الأشخاص في جو خانق بالكاد تستطيع أن تتنفس فيه، ولو حدث أصغر حريق لوقع من جرائه

مئات الوفيات اختناقا او رعبا، وأخيرا وبعد ان تملكها الحس السليم قامت البلدية بنقل هذا السوق إلى موقف آخر أكثر تهوية ما زال يعقد فيه حتى اليوم.

نقطتان تحركان هذا السوق بقوة: زاوية السجاد حيث تستطيع أن تجد كل ما تريد، وبالسعر الذي تريد بدءا من عشرين يورو، وزاوية القماش الأفغاني الذي يمتد على ثلاثة أزقة وحيث تنبسط أمامك مغارة (علي بابا): معروضات من الأقمشة ذات ألوان صارخة وقد صنعت بكل الأشكال ولكل الأذواق، ملابس العيد، الشالات، المناشف، وسائد مزينة بقطع من المرايا ويجلس بين هذه الأكوام المكدسة باعة من الأفغان الذين يتجاوزون بواقعية طبيعتهم التي تذكرك بطالبان ولكنهم بالتأكيد - وهذا متفق عليه - دمثو الأخلاق تماماً، في هذه المملكة المسحورة يختفي الحس النقدي ويتساءل المرء وهو يغادر السوق فيما إذا كان يحلم، فقط علبة المشتريات في يدك تؤكد لك أنك كنت هناك.

لقد قلنا في الفصل السابق إن الشاه عباس أراد أن يجعل من أصفهان ومن بلاد فارس ومن العالم مسجداً كبيراً، ولكن الطبيعة الحقيقية لإيران هي بالتأكيد أكثر قربا إلى سوق كبير، وبازار طهران هو منها بمنزلة القلب، ولكن روح البازار موجودة في كل مكان، في كل حي، في كل قرية بل وتعشش داخل كل إيراني، كل إيرانية، وهي تطبع كل السلوكيات، وتصعد من كل زوايا إيران مع العصافير المغردة التي تضفي البهجة على نهارات التجار على امتداد حياتهم الحزينة.


@Ahmedyassin90

5

تحيا أمريكا، تسقط أمريكا

في كل يوم جمعة وفي كل إيران وفي وقت صلاة الجمعة في المساجد ترتفع في الهواء ملايين القبضات مع هتاف «الموت لأمريكا». وعندما نسبر غور المشهد أكثر، نجد أن القلب لا يقول إلا نصف ذلك، لقد أصبح هذا الدعاء جزءاً من الشعائر ومميزاً لخطب الجمعة التي تجري تقريباً وفق المسار نفسه.

وينتقل الخطيب بعد عدد من العبارات الدينية وبعض الاستشهادات من القرآن، إلى السياسة، ويبدأ عادة بالسياسة الداخلية مشيراً إلى جهود الجمهورية الإسلامية لتحقيق الرفاه للشعب، ولكن أيضاً إلى العقبات التي تصطدم بها هذه الجهود حتى داخل السلطة نفسها، ويتكرر الحديث عن الفساد، وكذلك عدم كفاية ما تقوم به الحكومة وخاصة عندما تكون حكومة إصلاحية.

ثم يقترب بعد ذلك من السياسة الخارجية وهنا ،تبدو إيران بالضرورة وكأنها ضحية الاضطهاد الدائم من القوى العظمى في العالم، الأوروبيين غالبا، وإسرائيل بالضرورة، ومن كل الوجوه أمريكا. ثم يصعد الخطيب من لهجته، وترتفع القبضات في الهواء، عندها ينتقل الخطيب بسهولة كبيرة من إيران الشهيدة إلى الإمام الشهيد، الإمام الحسين (كربلاء 680) فيستدر بصوته المتهدج شهقات البكاء يرافقها الأنين والعويل من المصلين.

ويمسح الخطيب عينيه بمنديله، أما أولئك الذي لم يذرفوا دمعة فيدفنون على الأقل رؤوسهم في صدورهم ويغطون وجوههم بأكفهم. وعندما تمضي هذه اللحظات التطهرية، تنتهي الخطبة ببعض العبارات المناسبة ويغادر كل مصل المسجد وقد استعاد مرحه، وإذا استطاع أحد ما بعد خروجه من المسجد، الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة سيكون بالتأكيد قد حقق النجاح الأكبر.

لا شيء يدعو للدهشة، مع أكثر من مليون إيراني يقيمون الآن في أمريكا الشمالية، ومنهم على الأقل ثلاث مئة ألف في لوس أنجلوس وحدها، كما أن الناس من كلا البلدين يتواصلون هاتفيا بغزارة ويتنقلون بينهما من دون صعوبات كبيرة، وعلى الأخص من الجانب الإيراني، حيث عدلت السلطات عن منع الناس من السفر خارج البلاد والعودة إليها وخاصة إذا لم يكونوا مطلوبين للقضاء (والحقيقة أن هذا قد يحدث لأكثر من سبب).

وتكمن الصعوبة الوحيدة، كما يقولون، في الحصول على تأشيرة الدخول الأمريكية، والتي لا يمكن الحصول عليها في إيران نفسها، بل يجب الذهاب إلى قنصلية أمريكية خارج إيران، وغالبا ما تكون في دبي أو أوروبا، ويحلم الطلبة بإكمال دراستهم في أمريكا أو على الأقل في كندا باعتبارها البوابة الخلفية للولايات المتحدة، وتأتي بعد ذلك قائمة خيارات أخرى: بريطانيا العظمى وأستراليا، أما ألمانيا وفرنسا فهما الخيار النهائي المقبول كرها، وتجهز الأسر نفسها لإعطاء أبنائها الذكور فرصة الدراسة في الخارج وتسديد النفقات الباهظة التي تستنزف حتى دم القلب، أما الجامعات الأمريكية فترسل مندوبيها ليتجولوا هنا وهناك في أرجاء إيران لتتعرف بشكل خفي على أفضل الطلبة الناجحين في الامتحانات

الوطنيــة أو مســابقات الأولمبياد العلميــة، فتغريهم بالســفر إلى الولايات المتحدة وتعدهم بالإنفاق عليهم ومنحهم الإقامة وحتى إعطائهم ســيارة، كما تقول الشائعات المنتشرة.

ومــن المعروف أنه ليس من النادر أن يكتشــف النظام واحداً من الذين يحتلون مناصــب عالية أن لديه ابنا أو اثنين يدرســان في أمريكا. وإذا لم يرغــب هذا الوالد بالمجازفة لزيارتهما، فســتقوم زوجتــه مقامه، وأحيانا بشــكل متكــرر بعد أن تختلق عذراً ما للســفر بغية الاطمئنــان على ولديها العزيزيــن، وربمــا كان لديهــا البطاقة الخضــراء الســحرية التي تســمح بالإقامــة في الولايات المتحدة مخبأة تحت كومة ثيابها الداخلية، هذا إن لم يكن جواز سفر أمريكي.

ونجد في أعماق الإيرانيين وبعيداً عن اللعنات الشــعائرية التي تصب علــى أمريــكا، القناعة بأن الولايات المتحدة هي المحــاور الوحيد الجدير بهــم. وقد قطعت كل الروابــط مع الولايات المتحدة منذ الاســتيلاء على الســفارة الأمريكيــة في طهــران منذ ما يقــرب من ربع قرن، وأصــبحت الشــتائم الوسيلة الوحيدة للاتصــال والطريقة الفريدة ليقف الفريقان في مســتوى واحــد، وبالنســبة للأمريكيين أيضــاً فإن إيــران هي المحاور الوحيــد الذي يســتحق الاهتمام في المنطقة ودون مقارنــة مع الدول التي تقع وراءها.

لا يســتطيع الطرفان مــع الحنق والكبــت المتبادلين أن يتحادثــا ويتعاونا كصــديقين طبيعيين، والسبب هو ســوء تفاهم لم ينجح أحد في تبديده، إنما علينا ألا ننسى أنه في الزمن الاستعماري الصعب وفي الوقت الذي كانت فيه

إيران كما كانت الصين، تعيش خطرا مميتا وهو التقسيم (الصين من قبل فرنسا وإنكلترا وروسيا وألمانيا، وإيران من قبل بريطانيا وروسيا) عارضت الولايات المتحدة الشهوات الاستعمارية ودافعت عن وحدة التراب الإيراني.

وعندما قامت الثورة الدستورية عام 1906. انتفض الشباب الإيراني انتفاضته الأولى في المنطقة، وقبل قيام حزب تركيا الفتاة في الإمبراطورية العثمانية، ليهز العرش القاجاري المنخور، وتمكنوا من تأسيس برلمان. وكان هناك من بين الذين قتلوا بسلاح الشاه والجيش الروسي الذي سانده، فتى أجنبي يدعى هوارد سكرفيل وهو شاب رسولي وأستاذ في جامعة تبريز انضم إلى طلابه في مقاومة الشاه ومات في المعركة وهو في الرابعة والعشرين من عمره أثناء محاولة فك الحصار عن المدينة، وما زال قبر هذا الشاب في مقبرة تبريز وبعد سبعين عاما، وفي ذروة الثورة الإسلامية يغطى دائما بالورود.

وبعد فترة تبعد قليلا عن ذلك الحادث، نشبت أزمة سياسية كبيرة حول خبير أمريكي جاء إلى طهران كي يعيد تنظيم الخزانة الإيرانية ويضع أسسا حديثة لميزانية الدولة، وقد شعرت الحكومات المحلية المستغلة أن مصالحها الواسعة سوف تتضرر بمثل هذه المشروعات الإصلاحية فقامت بالتحالف مع الروس والإنكليز، وبموجب هذا التحالف تقدمت القوات الروسية داخل الأراضي الإيرانية. كما بذل السفير البريطاني جهودا مضنية وملحاحة أكثر فأكثر لمغادرة الخبير الأمريكي بسبب التهديدات المختلفة، وقد كتب هذا الخبير بعد عودته إلى بلاده كتابا بعنوان «فارس المخنوقة».

وفي هذا المجال هناك أمور أخرى كثيرة لا تنسى.

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية، أجبرت ضغوط الرئيس الأمريكي ترومان، قوات ستالين التي احتلت أزربيجان الإيرانية منذ عام 1941، على الجلاء عنها، وكانت هذه القوات لا تبدي أي استعجال في الانسحاب مستفيدة من ظهور الجمهوريات ذات الحكم الذاتي، كما قاوم ترومان مدفوعا بسريرته المعادية للاستعمار، البريطانيين الذين أرادوا إقناعه بعدالة موقفهم عندما هبوا ضد تأميم النفط الذي صوت عليه البرلمان الإيراني عام 1951 بناء على طلب رئيس الوزراء مصدق. وفي ذلك الحين قام الإنكليز بترحيل رعاياهم من عبادان وبدؤوا بالتآمر لقلب حكم مصدق.

وانقلب كل شيء مع وصول أيزنهاور، وهو رجل لين العريكة ولكن، ولأنه كان يلعب الغولف بشكل دائم في ساعات بعد الظهر كان لابد له أن يمنح ثقته لآخرين يحلوا محله، وفي تلك الحقبة كان الأخوان دالاس الطرف الذي حاز على ثقته، جون فوستر دالس للشؤون الخارجية، وألن دالس في وكالة المخابرات المركزية، ولم يسمع «آيك» من هذين المسؤولين المتعاونين والقريبين جدا الواحد منهما من الآخر، إلا صوت جرس واحد، إنه ناقوس الخطر من الشيوعية. وفي الواقع فقد كان الأمريكيون في حرب حقيقية مع كوريا.

وفي الجانب الآخر، الجانب البريطاني، عاد تشرشل صديق السلاح ليرأس الحكومة. وقد أقلق الإنكليز أن تزويد العالم الحر بالنفط تحف به المخاطر، وأن إيران سوف تنقلب على الغرب بتأثير الاتحاد السوفييتي. وبسرعة تخلى الأمريكيون عن موقفهم التقليدي في الدفاع عن الأمم

الفتية، ووضعوا كل إمكانياتهم لطرد مصدق وعودة الشاه، انهمر مطر من الدولارات فوق أصحاب النفوذ والنواب والملالي والصحفيين، وتساقط مطر آخر من الدولارات أيضا فوق المافيات المحلية التي دفعت بقطاع الطرق التابعين لها إلى الشارع، وعبأت البروليتاريا الرثة، وكان المحرك الرئيس للمؤامرة، كرميت روزفلت ابن الرئيس تيودور روزفلت وعميل المخابرات المركزية الأمريكية، وكان يقيم في السفارة الأمريكية في طهران ويدير منها خيوط المؤامرة، وتذكر الإيرانيون عام 1979 أي بعد ست وعشرين سنة هذه الأحداث فعمّدوا السفارة باعتبارها «وكرا للتجسس».

ولا نعرف بشكل مؤكد إلى أي نقطة حققت العملية ـ وهي الأولى من نوعها لوكالة المخابرات المركزية ـ السعادة للقادة الأمريكيين، وأقنعتهم بصحة الأسلوب الذي اتبعوه ، وشجعتهم على مواصلة نفس الطريق في كل مكان آخر يزعجهم فيه شخص ما، إنما جرت في السنة التالية تصفية آربنز في غواتيمالا[1] وتتابع هذا الأسلوب حتى أيام الليندي[2] في تشيلي بعد عشرين عاما.

أما بالنسبة للإنكليز فكان ما جرى خبطة قوية أوقفت تدهور نفوذهم العالمي، ولعل هذا النجاح هو الذي جعلهم يندفعون مع الفرنسيين في مغامرة حملة السويس دون أن يفكروا كثيرا في نتائجها، وقد أقنعهم فشل هذه المغامرة بأمر مهم واحد على الأقل، وهو أن لا يشرعوا أبدا في عمل دون مشاركة الأمريكيين.

---

(1) سقطت حكومة الكولونيل جاكوبو أربنز المناصرة للشيوعية عام 1954 بتخطيط من جون فوستر دالاس.

(2) سلفادور الليبندي رئيس تشيلي الاشتراكي (1973-1970) سقط عام 1973 نتيجة انقلاب مدعوم من الولايات المتحدة قتل خلال عملية الانقلاب .

أمـا بالنسـبة للوطنيـين الإيرانيين فقد شـكلت نتيجة المؤامـرة إذلالاً قاسـيا ذكّرهم بموقعهم الحقيقـي في عيون الغرب، إنه موقـع أبناء البلد الذين لا ينظر العالم الغربي إليهم إلا عبر ثروتهم التي يسـطر عليها من دونهم ويقوض كل جهد يمكن أن يرتقي بهم فوق وضـعهم الحالي، وعرف الإيرانيون أن الغرب يتملق الحكام كي يقودهم من أنوفهم في الوقت الذي يسـخر فيه منهم، لقد اسـتيقظت هذه الذكريات من جديد بعد خمسـين عاما مع معالجة موضوع الملف النووي.

كل هذه الذكريات كانت تأخذ طريقها تحت الأرض وكأنها الخلد العجوز عنـد ماركس، وبقيت كذلك حتى انفجار عام 1978 الذي دفع بالشـاه إلى المنفى في بداية السنة التالية، إنما كانت تقع بين الحين والحين نوبات تشبه الحمى، وخلال السنين السـالفة الذكر أخذ الأمريكيون مواقعهم في إيران وهـم يلكزون بالكوع النفوذ القديم، نفوذ فرنسـا وإنكلترا، وقد اسـتقبلوا في جامعاتهم كل عام عشـرات الآلاف مـن الإيرانيين، وباعوا إيران الكثير مـن منتجاتهم وبشـكل خاص السـلاح، ونقلـوا مع مبيعاتهـم موجات من التقنيين والمستشارين، عشرة آلاف مساعد فني في الميدان العسكري فقط، كمـا جرى تمرير اتفاقية مع إيران لطمأنة المنفيين بإعطائهم الحصـانات والامتيازات فنجت هذه الشخصيات وممتلكاتها من المحاكم الإيرانية حيث وجه الخميني وقتها نقده اللاذع الشهير لهذه المحاكم قائلا إن «كلبا يملكه أمريكي سيكون حاله في القضاء الإيراني أفضل حتى من الشاه نفسه».

قامت الثورة فنشـرت فوضـى عصية على الوصـف، وخشي الناس أن تنهار من خلال عمليات كتلك التي اسـتخدمت ضـد مصـدق، وربما كان هذا هو السـبب العميق لاحتلال السـفارة الأمريكية من قبل مجموعة من

الطلاب في 4 تشرين الثاني 1979، بالإضافة إلى سبب فوري هو استقبال الشاه في الولايات المتحدة، وكان هذا هو الاحتلال الثاني للسفارة، إذ كان الاحتلال الأول في شهر شباط ولكنه انتهى بعد يومين أو ثلاثة فقط، بفضل مهارة السفير سوليفان الذي لم يغادر طهران حتى ذلك الحين.

ونفذ الاحتلال دون مقاومة، واعتقد العديدون وبسرعة بأنه سيكون بالإمكان وضع نهاية سريعة له، ولكن جو المزايدات الذي سيطر آنذاك على الثوريين الدينيين والثوريين الماركسيين، حال دون تجرؤ أي شخص وحتى الخميني نفسه على دفع العربة إلى الوراء، واستمر احتجاز الرهائن المرفوض 444 يوما، وقد استخدمته إيران كنوع من الأمان ضد كل محاولات الاعتداء الأمريكية.

إذلال مقابل إذلال، إنما كان الإذلال هذه المرة من نصيب الولايات المتحدة، وهو الذي دفعها إلى اتخاذ مواقفها من الثورة. وفي نيسان 1980 أي بعد ستة أشهر من الأزمة وقع الفشل الكارثي لعملية تخليص رهائن السفارة بسبب عاصفة رملية غطت المكان الذي يفترض أن تهبط فيه طائرات الهليكوبتر وطائرات نقل في عرض الصحراء بالقرب من واحة تاباس.

وفي تموز 1980، أي في الشهر التاسع من الأزمة، وفي مرحلة اتسمت بقطع العلاقات بين الولايات المتحدة والعراق بدعوى رعايته للإرهاب التقى بريجينيو بريجنسكي رئيس مجلس الأمن القومي الأمريكي مع صدام حسين في الأردن، وبعد شهرين أي في شهر أيلول هاجم العراق إيران وفي تقديره التغلب بسهولة على هذه البلاد المفككة، وفي الشهر الذي تلاه اجتمع جورج بوش المرشح ليكون نائبا لرونالد ريغن المرشح للرئاسة

بمبعوثين إيرانيين كي يحول دون إطلاق سراح الرهائن في ظل رئاسة كارتر المنتهية وحصل على وعد بإطلاق سراحهم وإعادتهم إلى بلادهم مع بداية تسلم الرئيس الجمهوري المقبل منصبه، وقد حقق بذلك نصراً باهراً حيث تحقق تحرير الرهائن في كانون الثاني 1981 وهو اليوم نفسه الذي جرى فيه الاحتفال بتنصيب رونالد ريغن.

ولكن الحرب الإيرانية دامت ثماني سنوات، وقد تمتع صدام خلالها بالرعاية الدائمة من الولايات المتحدة الأمريكية، وشطب العراق من قائمة الدول الراعية للإرهاب وأعيدت العلاقات الدبلوماسية رسميا، وسافر رامسفيلد إلى بغداد بصفته مبعوثا شخصيا من الرئيس ريغن، كما أفاد صدام من رعاية أوروبا وخاصة فرنسا، والعالم العربي، أي تقريبا العالم كله ما عدا الصين وإسرائيل، وقد احتاج الأمر إلى زمن طويل كي تعترف الأمم المتحدة على لسان أمينها العام بأن العراق هو الدولة المعتدية.

أورد هذا كي أقول: إن النطفة التي وضعت في رحم المؤامرة الأنجلوأمريكية ضد مصدق، تسببت في سلسلة متعاقبة ومتوالية من النتائج التي لم يكن بالإمكان تفاديها، ليس فقط في تاريخ إيران، بل في تاريخ المنطقة كلها وما وراءها أيضاً. وكان احتلال السفارة الأمريكية أحد هذه النتائج كما أطلقت المؤامرة العنف في المنطقة. ونلمس حتى اليوم نتائجها باستمرار ومنها العقوبات الاقتصادية التي فرضت على إيران من قبل الولايات المتحدة، والتي فرضت على البلاد عبئا كبيراً في عملية تحديث وسائل استثمار البترول والغاز، وتجديد أسطول النقل الجوي الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة، وبشكل عام حالت العقوبات دون تنمية اقتصادها.

كان بإمكان كلمة أسف واحدة، أو إشارة تعاطف مع المعاناة المفروضة على الرهائن أن تفتح من جديد باب الحوار، وحتى على المستوى غير الحكومي يعترف أنصار النظام طوعا بالخطأ الذي تمثل بالاحتجاز الطويل للرهائن. أما أعضاء اتحاد الطلبة الذين قاموا في الأصل بالاستيلاء على السفارة فقد انتقلوا في قسمهم الأعظم إلى الجانب الإصلاحي ملتفين حول الرئيس خاتمي، هذه هي مثلا حال المستشارة والناطقة الرسمية لمحتجزي الرهائن أمام الصحافة الأجنبية، وهي طهران ماري والتي أصبحت فيما بعد نائبا لرئيس الجمهورية لشؤون البيئة، واسمها الحقيقي معصومة ابتكار. ويهرب الذين قاموا بهذا الدور و كل عام من كل الاحتفالات السنوية التي يقيمها النظام إحياء لذكرى احتلال السفارة.

ولكن، إذا قاومت إيران فكرة الاعتذار فذلك لأن احتلال السفارة الأمريكية تبلور إلى عمل تأسيسي في الجمهورية الإسلامية كما كان الأمر مع احتلال الباستيل في الثورة الفرنسية. ففي الحالتين جرى الاستيلاء على رمز الطغيان، وهو عمل يتحول دوما إلى رمز مقدس. ولا يمكننا أن نتصور الفرنسيين يعترفون أنه ما كان على آبائهم الاستيلاء على سجن فارغ وباحتين تعيستين أو ثلاث، وذبح حاميته الوديعة من الدرك. ولن يستطيع امرؤ أن يقنع الإيرانيين بالاعتراف أنه ما كان عليهم استغلال السفارة الأمريكية لتحقيق أغراضهم.

وهكذا تحتفل الجمهورية الإسلامية في بداية تشرين الثاني من كل عام بذكرى الاستيلاء على السفارة، ويقال إن أبطال هذا العمل لا يشاركون في الاحتفال أبدا، إنما تحضره وحدات من الباسيج وهي ميليشيات شبابية تابعة للنظام، وكذلك الآلاف من أطفال المدارس، وفي

تلك المناسبة يتحول البناء الذي كان سفارة إلى دورة مراحيض، وتفتح أبوابها للزائرين الذين يتجولون في المكاتب التي تحولت إلى صالات عرض لشراسة الاستعمار والصهيونية مع صور عنف دامية تنال استحسان الناس دائما، ويزور الناس أيضا غرفة «الشيفرة» التي تقدم للجمهور على أنها قلب كل الدسائس والمكائد، بينما هي في الحقيقة مجهزة بأجهزة تعود للعام 1970، وعادية جداً.

وفي السفارة قاعة كبيرة زودت بألعاب للأطفال، مع مسابقات ومعارض رسم لموضوعات معدة مسبقا بهدف التعبئة، وقد زرت القاعة فقوبلت باستغراب رغم أني ذهبت مخفيا صفتي وبرفقة سفير سويسرا الذي يرعى المصالح الأمريكية، وكان الذي استقبلنا «ميكي ماوس» كبير يرتدي ثوبا من القطيفة ويحركه من الداخل من دون شك أحد أفراد الباسيج، لكن «ميكي» كان صديقاً لكل الأطفال بما فيهم أطفال إيران، وقد رسم على الأرض عند مدخل السفارة علم أمريكي كبير يدوسه الداخلون بأقدامهم إلا إذا داروا من حوله قاصدين تجنب ذلك، وهذا ما فعلته أنا بالطبع.

وكان باستطاعتنا بعد بضعة أيام أن نقرأ في الصحف أن عددا معينا من تلامذة المدارس الابتدائية الذين دخلوا إلى السفارة بشكل جماعي رفضوا أن يدوسوا بأقدامهم الراية المزينة بالنجوم، كما يجب ألا نتجاهل التعاطف الشعبي الإيراني الذي خلقته اعتداءات 11 أيلول، قد نتساءل ماذا اتخذوا من إجراءات ضد هؤلاء التلاميذ المتمردين؟ أي عقوبة يمكن أن تفرض بحقهم؟ أوردت الصحافة بأنه تقرر أخيرا معاقبتهم بـ «صفر في السلوك».

والحقيقة أنه في إيران وفي قلب النظام نفسه، يحلم الكثيرون بوصل ما انقطع مع الأمريكيين، ويعتقد كل إيراني من هؤلاء أن الذي ينهي هذه الدورة من العنف سيحقق شعبية كبيرة وسيحصل على تأييد كبير في مسيرته السياسية، ولكن ما يدعو للصدمة أن كل شخص يسعى لمنع جاره من النجاح. ويا لمصيبة من يتجرأ على الخروج من الخندق، إذ ستناله نيران أصدقائه قبل نيران خصومه.

من الجانب الأمريكي، يرغب الكثيرون أيضاً في الخروج من الحصار ولكن دون الدخول في مخاطرة سياسية تثير نقمة الناخبين، وكان الجانبان الإيراني والأمريكي، خلال سنوات وسنوات يفوتان الفرصة بعد الفرصة حيث كانت كل إشارة تبدر من هذا الطرف تدفع الطرف الآخر للتراجع وكانت كل ابتسامة ترتسم على وجه هذا الجانب تجعل الجانب الآخر يقطب حاجبيه، وقد فتحت الثغرة الأخيرة من قبل الرئيس بوش في حزيران 2006. ترى هل ستقود هذه الثغرة إلى الخلاص من اللعنة؟.

والأمر الحقيقي أن ملف النزاع مثقل الآن بالأزمتين العراقية واللبنانية.

في الجانب العراقي، لدى الإيرانيين ما يدعوهم للسعادة. فمن دون أن يتجشموا عناء الحركة قام الأمريكيون بتخليصهم من عدوهم اللدود صدام حسين الذي منعهم النوم سنوات طويلة. (وقد تخلصوا قبل مدة من أعداء ألِدَّة آخرين في أفغانستان وهم طالبان). وباسم الديمقراطية أعطيت الفرصة لشيعة العراق للوصول إلى مراكز المسؤولية السياسية التي كانوا قد حرموا منها لقرون عديدة، وقد دخل العراق أخيرا في وضع يكاد يكون عصيًّا على الحل، وهذا مالا يسبب حزناً للنظام الإيراني.

هل علينا القول إن إيران سعيدة وهي تراقب الأحداث من مقصورة في المسرح؟ وسيحقق هذا مزيداً من الثقة لدى جميع الذين يتحركون في الظل، وبشكل خاص الحرس الثوري (الباسدران) الذي يحمل حماس الثورة الوليدة، ولا يمكن اعتبار العراق الذي يضم بين جنباته معظم أضرحة الأئمة الكبار، كما كان ملجأ الإمام الأخير الذي سيعود يوما من غيبته أرضا غريبة للإيراني المتدين، حيث يهرع عشرات الألوف منهم دون أدنى تفكير ولو للحظة واحدة لزيارة هذه الأماكن الشيعية الكبرى المقدسة في جنوب العراق والتي كانت ممنوعة عليهم، ليمارسوا شعائرهم.

نحن هنا أمام دافعين على الأقل لتعقيد حياة الأمريكيين الأول سياسي والثاني ديني، والمطلوب تعقيد أمورهم بما يكفي ليتابعوا الغوص في الوحل وتستنزفهم الحرب، ولكن ليس إلى الدرجة التي يؤدي فيها انفجار البلاد إلى إضعاف سلطة الشيعة العراقيين، والسماح بانفصال أكراد المنطقة بما فيهم الأكراد الإيرانيين ليجدوا أنفسهم وقد أصبحوا أمة واحدة، إن الممارسة الإيرانية هنا دقيقة فهي تعبىء دون شك الكثير من القرائح التي تعمل خلف ستار.

أما لبنان وفلسطين فهما الميدانان المفضلان لنشاط الحرس الثوري. لبنان، بالنسبة لهم مصدر فخرهم حيث أسسوا فيه حزب الله الذي خلق في البلاد الشعور بالانتماء للمجتمع الشيعي، وهو المجتمع الأكثر فقراً، وحتى ذلك الحين الأكثر تهميشا، وقد أنفق الإيرانيون الكثير من المال منذ الثمانينيات لإنشاء ميليشيا علموها كيف تنشر الرعب، وكيف تقاوم، ولم يكن باستطاعة أحد تصور أنها ستجهز بأسلحة تتكامل يوما بعد يوم، وبشكل خاص بالصواريخ التي ضربت حيفا صيف عام 2006،

وربما بصـواريخ أطول مدى تسـتطيع ذات يوم الوصـول إلى تل أبيب، وقد اكتسبت كبائن الشحن في الطائرات التي تسافر بين دمشق وطهران شهرةً بأنها تُحشـى بالأسـلحة أكثر مما تنقل الأمتعة الشخصية للسواح الدينيين الإيرانيين الذين يتوجهون إلى دمشق لزيارة أضرحة بعض الأولياء.

ولكن الشيعة العراقيين ليسوا دمى بيد الإيرانيين، فقائدهم الروحي والسياسـي الرئيسـ آيـة الله سيسـتاني هـو معارضـ بشـدة للخميني وتعاليمـه، لذلك تعلم حـزب الله كيف يبحر بين راعييـه الاثنين، إيران وسورية، وقد حققت الشخصية الرئيسة فيه، (حسن نصر الله)، نفوذا في العالمين العربي والإسلامي، مع التأكيد بأنه ليس لعبة بيد أحد.

وإذا كانت إيران تلقي بثقلها على سياسـة حزب الله في لبنان، وبشكل جزئـي علـى حركة حماس في فلسـطين ـ وهذا مؤكـد تماما ـ فـإن هذا الأمـر ينبثق من رعايتها الدائمة، المالية وغيرها، وليس عن طريق سـلطة تراتبيـة، وتبحـث إيـران بالتأكيد معهما وبالتفصـيل ما يسـتطيعان فعله ومالا يستطيعان، كما تعطيهما أيضاً، في الوقت اللازم نصائح بالاعتدال، لقـد تعلم النظام أن يكون حذرا.. وكان عليه في الواقع أن يوازن دائما بين المصالح الخاصة لإيران كدولة وأمة وبين قضايا الثورة الإسلامية، والنواة الصلبة لديه هي نشـر الثورة الإسلامية في العالم العربي ـ الإسلامي وما وراءه وعلى صد الغرب الكافر ما أمكن، وتُعد القضية الفلسطينية بالنسبة لإيران البيرق المفضـل لديها لرفعه، ولكن النظام يعلم أيضـاً أنه ليس من مصـلحته إشعال النار في الشرق الأوسط والشـرق الأدنى إلى درجة يجد نفسه وسط اضطرابات سياسية واجتماعية وحتى الخوف أن يصلها لهيب الحريق المشـتعل، ومن الواضـح أن مخاطر مثل هذه السياسة هي حقيقية

جداً بسبب العديد من الملفات القابلة للاشتعال ومنها الملف النووي الذي سنتحدث عنه فيما بعد.

ولكي ننهي هذا الفصل سنورد ملاحظة طريفة بالعودة مع إبراهيم نبوي إلى الخطوات الدائمة في التقدم والتقهقر في المسألة الإيرانية - الأمريكية، وقد نشر هذا الكاتب الساخر بعد مغادرته إيران إلى المهجر مقالا في مجلة بايان عام 2002.

قال إبراهيم نبوي في المقال المذكور: إن ميول الأمريكيين للإيرانيين وميول الإيرانيين للأمريكيين كبيرة، فنحن نشبه بعضنا كثيراً، ونحن نحب بعضنا بشكل كبير، ونحن نكره بعضنا كرها لا يوصف. وباختصار كل شيء بيننا يقوم على أساس تفضيل الذات، وحتى في الصورة التي يكوّنها كل واحد منا عن الآخر.

أعلنت الصحافة الإيرانية أن مجموعة من الإيرانيين أشعلوا الشموع ليعبروا عن تضامنهم مع ضحايا اعتداءات 11 أيلول.

وبعد بضعة أيام، أعلن وزير الشؤون الخارجية الإيراني أنه إذا قبلت الولايات المتحدة أن تكون منطقية، فإيران جاهزة للدخول في حوار معها.

وفي اليوم التالي جزم وزير الشؤون الخارجية الإيراني أن إيران لن تتحاور إطلاقا مع الولايات المتحدة.

وبعد أسبوع من ذلك التصريح الجديد، صرح وزير الشؤون الخارجية الإيراني بأنه جاهز دائما للحوار.

وأخيرا، أعلنت الحكومة الإيرانية موقفها الرسمي بالنسبة للولايات المتحدة وهو أن تقف إلى جانبنا في قضايانا العادلة وتسمح لنا بأن نوجه قبضتنا إلى وجهها، ويجب على الأمريكيين الاسترحام لمتابعة الحوار، بينما ـ نحن ـ من طرفنا، سنرفض الحوار حتى القطرة الأخيرة من دمنا.

ومن الجانب الأمريكي، أعلن الرئيس بوش بأن الإيرانيين قد تبنوا موقفاً صحيحا جدا بعد اعتداءات 11 أيلول.

وبعد يومين أعلن الرئيس بوش أنه لا يوجد أدنى شك في المشاركة الضمنية لإيران في اعتداءات 11 أيلول.

وبعد ثلاثة أيام جزم كولن باول بأن الولايات المتحدة مقتنعة بأن إيران ليست متورطة في اعتداءات الحادي عشر من أيلول.

وأخيرا، أعلنت الإدارة الأمريكية موقفها الرسمي: «نحن جاهزون للحوار ولتدمير إيران المسالمة والمحبة للحرب عبر عملية تبدأ فورا وتستمر ثلاث سنوات.

حكمة: من حسن الحظ أن الإيرانيين والأمريكيين ليسوا السكان الوحيدين على هذا الكوكب، وأن هناك شعوباً أخرى تشاركهم العيش، ولولا ذلك لما بقي شيء من عالمنا.[1]

---

(1) ليس إلى هذا الحد، فهذه مبالغة من المؤلف.

6

وراء مقود السيارة

قال البابا بيوس الحادي عشر ذات يوم: إن الحضارات الراسخة للشعوب تعبر عن نفسها بشكل طبيعي تماما عبر صورتها الثقافية». وإذا ما قيس هذا القول بالعبارات الطنانة لبدا مبتذلا، ولو بقي حيا حتى اليوم لقال كما يقول كل الناس الآن: إن الحضارة تعبر عن نفسها بطريقة قيادة الشعب للسيارة.

وبهذا الخصوص تتميز إيران عن كل الآخرين، لدي صديق، رحالة كبير، وسائق متمرس، ويتمتع ببنية قوية، أقام وقاد سيارته في بلدان لا تحتمل فيها حركة السير مثل مصر والهند، وقد شاهدته بعد وصوله إلى طهران بقليل يقود سيارته، ويقف أمام منعطف رئيس، وقد شحب وجهه. كان كل سائق سواء كان يقود سيارة كبيرة، سيارة عادية، تاكسي، سيارة نقل صغيرة، يزاحم بالقرب من إشارة المرور الخضراء ليحصل على سبق على كل الآخرين بأي ثمن، وسط مشاة يعبرون الشارع باستمرار دون أن يعيروا التفاتا لما يجري، ووسط ثآليل من الدراجات النارية تطير هنا وهناك كالزنابير.

لاشيء من العنف وسط هذه الفوضى، لا شيء من الضوضاء الدائمة لأبواق السيارات التي نسمعها في القاهرة أو في دمشق. بالعكس، إنها فوضى منظمة. مثلا، وفيما عدا حالات الإسعاف المتعلقة بحياة الناس

فإن استخدام بوق السيارة في إيران ممنوع، وإذا ما استخدم فبلمسة بسيطة للزر، وفي أسوأ الحالات يتكرر صوت (بيب) مرتين أو ثلاثاً، وهذا بالضبط ما يجب فعله للفت انتباه الناس الذين يفترض أنهم يقظون وحذرون، وبالنسبة للإيرانيين، هذا التنبيه يكفيهم .

والصراع من أجل المرور يجري بالسيوف التي علاها الغبار، فقانون السير يجري تجاهله تماما طالما أنه يعبر عن نظام عام وهذا ما يخالف طبيعة كل فارسي، والعلاقة بين أي سائقين، أو بين سائق سيارة وسائق دراجة نارية أو حتى بينه وبين أحد المشاة في لحظة التنافس واقتراب أحدهما من الآخر هي علاقة تفاعلية، وتتطلب أن يزن كل منهما بلمح البصر الحالة المعنوية للخصم، ولين عريكته أو سوء طبعه، ثقته بنفسه أو ضعفها، هل هو في عجلة من أمره أم لا، السرعة والطريقة المحتملة لاندفاعه نحو الخصم.

وإذا فكر أحدهم أن يغضبه، فإنه يزداد اندفاعا، و يمكن للآخر أن يفعل الشيء نفسه، حيث يصل الاثنان غالبا إلى احتكاك هيكلي السيارتين بضعة سنتيمترات، فإذا تراجع الآخر استمتع الأول بنشوة نصر صغير. أما الذي تراجع فيعزي نفسه بأنه أكثر عقلانية من الآخر، ومن ثم يغيب أي شعور بالإهانة، أو أي شعور بالبغضاء من هذا الجانب أو ذاك. وتستمرهذه الحال إلى أن يتجدد الموقف من جديد، وهذا يمكن أن يحدث بعد بضع ثوان بسبب الاختناقات المرورية المرعبة في طهران.

وإذا شاهدنا سيارة تسير في شارع ذي اتجاه واحد وتقوم بنصف دورة عند فتحة في شارع رئيس مزدحم، أو تسير متقهقرة إلى الخلف

على طريق سـريع لتبلغ منفذاً بعد بضـع عشرات من الأمتار، فليس هناك مـبرر للانزعاج أو الهيـاج، إذ يعتبر هذا الأمر عاديا ويسـتدعي من بقية السيارات التنحي أو الإبطاء لتسهيل حركة السيارة المتقهقرة، طالما أن كل سـائق قد يحتاج ذات يوم لمساعدة الآخرين له وهو يقوم بالحركة نفسها. ويحـدث كل فرد نفسـه أنه إذا قام امرؤ بهذه المناورة فلأنه مضـطر إلى ذلك، وبالتالي يجب احترامه.

ومـن خلال القواعد نفسـها التي تنتظم هذه الأفـكار، أتذكر أنني، في بدايـة وجودي في إيران، أوقفت سـيارتي في طهران في شـارع ضـيق، كي ألقـي نظـرة على مخطط المدينة، وكان الشـارع فارغا من السـيارات في تلـك اللحظة، وبعـد دقيقتين رفعت نظري إلى المرآة العاكسـة لأجد خلفي سـيارة نقل مليئة بالركاب وخلفها خمس أو سـت سـيارات صغيرة، وكان الجميـع ينتظـر بصـبر أن أنتهي مما كنت فيـه، ولم يسـتعمل أحد منهم البوق. وكانوا يفترضون أنني إن توقفت فلسبب معقول، ولذلك فلا موجب لإثارة الأعصاب.

وأيـن الشـرطة من كل هـذا؟ في الواقـع إن موقفهم دقيـق طالما أنهم أشخاص يمثلون الجهات الرسمية، والجهات الرسمية كما يراها الإيرانيون هـي عدو، وقليلا مـا ينظر إلى رجال الشـرطة على أنهـم يمثلون القانون ولكنهم كأشـخاص يستحقون الاحترام ويتلقونه شـأنهم في ذلك شأن كل الناس الآخرين.. وفي هذا الميدان أيضاً ينظر إلى الاحتكاك معهم ـ والذي يمكن أن يحدث ـ لا على أنه مواجهة بين الصواب والخطأ، وإنما على أنه احتكاك بين فردين بينهما معرفة واهية، يزن كل منهما الآخر ويدخل معه في مفاوضات لم يحدد موضوعها سابقاً.

وتعمل شـرطة المرور في ظروف قاسية، وفي مناخ يسممه التلوث الناتج عن حركة السـيارات، وهم غالبا ما يقفون على أرضـية الطريق مباشـرة ومن ثم في مساواة السيارات التي تلامس في سيرها كل أجزاء جسمهم إن حالهم هذا يشبه حال مصارع ثيران قذف به رغما عنه إلى الحلبة.

وحاليـا، أقام رئيس شـرطة المرور في طهران الأكشـاك عند المنعطفات الرئيسة كي يحميهم ولو قليلا ويرفعهم فوق مستوى الأرض قليلا. ومع ذلك فما زالوا مبتسـمين، ودمثي الأخلاق دون أن يفرضـوا أنفسهم على الناس، ولا يظهرون أي اضـطراب ضـد سـائق السـيارة الذي ينطلق مع الإشـارة الحمراء أو يتجاهل أوامرهم في ألا يركن سيارته إلى جانب الرصيف. إنهم - فقط - يسجلون رقم السيارة في دفتر مخالفات ذي أرومة كي تدفع الغرامة فيمـا بعـد، فإذا لم تسـدد قيمة المخالفـة، فليس ذلك مهماً مؤقتـاً، لأن كل سيارة لا يمكن أن تباع مجدداً في إيران، إذا لم يقم مالكها بتسديد قيمة كل المخالفات غير المدفوعة. وهكذا تكون الكلمة الأخيرة للقانون.

ولكن شـيئا لا يعمل لجعل هذا القانون محبوباً أو مفهوماً، ففي صـباح يوم ما، وفي طريق مديني ما، وفي طريق سـريع ما، وفي منعطف ما، توقف حركة المرور بصـفوف من الكتل الإسـمنتية دون أن يعرف أحد لماذا جرى ذلـك، وعند وصـول المرء إلى هـذا الحاجز، يلعن الأرض بكاملها، ويبدأ السـائقون بالبحث عن طرق أخرى أفضل، وأحيانا بثمن باهظ هو القيام بـدورة كبـيرة أو يقومون بالانعطاف نحـو الخلف، أو بالرجـوع إلى الوراء دون انعطاف، وأحيانا، تبدأ في الأسـابيع التي تعقب قطع الطريق بعض الأعمـال الطرقيـة، ويعيش الناس علـى أمـل أن تعود حرية المـرور لهذا

الطريق من الآن وحتى سـنة أو سـنتين.. ولكن، أحيانا قد لا يتحقق شـيء وتظهر تلك الكتل الإسمنتية وكأنها ستبقى إلى الأبد.

وفي الطريق، سـتجد مثلا خطوطا لفصل الممرات رسمت عليه في غير مواضـعها المناسـبة، وكأنها تنفيذ لتعليمات موظفين خبثاء. ففي مثل هذا الطريـق الذي يمتد مسـتقيما مسـافات بعيدة وحتى الأفـق يحذرك خط متواصل من التجاوز ولبضعة كيلومترات، ولكن عند وصولك إلى قمة جبل ما سـتجد أيضاً خطا متقطعا يسـمح لك بالتجاوز على الرغم من انعدام الرؤية على بعد خمسـين مترا. وبعد بضعة أسـابيع، إذا مررت في الأمكنة نفسـها قد لا تجـد خطوطا من أي نـوع كان . وككل الإيرانيين بإمكانك أن تتجاوز أو تحجم عن التجاوز وفق تقديراتك الشخصية.

أمـا الطرق السـريعة فإنهـا معتنى بها علـى وجه العمـوم، ولكنها لن تحرمـك مـن بعض المفاجـآت، فقد تجـد أن مداخلهـا ومخارجها وزعت بشـكل خاطئ وتكتشـف أحيانا عند الاقـتراب من الطريق السـريع أنه لا يمكـن الوصـول إليه إلا من طريـق ذي اتجاه واحد، لماذا؟ هل ينقصـهم المال للوصول بالمشروع إلى نهايته؟ وكيف يأخذ المرء الاتجاه المعاكس؟ أمر غامض... وعندما تسـأل العابرين من السائقين الآخرين ينتهي بك الأمر لمعرفـة أنـه بمكانك بعد مئات الأمتار، وقيادة السـيارة عـبر الحقول، أن تصـل إلى نفق هو في الحقيقة مسـيل ماء، ويأمل المرء في تلك اللحظة أن يكون جافا، ثم تزحف فوق منحدر غير معبد مواز للطريق السريع وعبر حاجز معدني محطم.

أمـر آخـر، إذ تكتشـف أن العقـاب الحقيقي هو غيـاب المخرج تماما، فأنت ترى عن بعد أنوار المآذن في مدينة ما تأمل الوصول إليها، أو الوصول

الفوري إلى طريق ما يتقاطع مع الطريق السـريع تستطيع أن تأخذه ولكن مـا من وسـيلة تمكنـك من الوصـول إلى ما تسـعى إليـه، في البداية تقود عبثا لمسـافة عشـرة كيلومترات أو خمسة عشر كيلومترا قبل أن تتمكن من الانعطـاف نحـو الخلف إنما مع أخذك الوقت الـلازم كي تعتاد العين على المـكان، بحيث تسـتطيع أن تتحرى علـى جانبي الطريق المنخفضـين آثار عجلات، وفي النهاية ينتهي الأمر بالعثور على هذه الآثار التي تسـمح لك بالسير فوق المنحدر الموازي دون أن تتعرض لمخاطر انقلاب السيارة، وكي تتمكن من الوصـول بالسرعة الممكنة إلى الهدف المطلوب، هذا فيما يتعلق بالطـرق المتعبة في كثير أو قليل، ولكنها بشـكل عام مضـطربة الحدود إذ تختفي تحت الفضلات التي يقذفها المسافرون عبر النوافذ والتي تتكدس مـع مرور الزمن علـى جانبي الطريق، يجب على المرء حتى مع السـيارات التي تستخدم في المدن المحافظة على روح المستكشف.

هـل هناك طـرق مأجورة؟ لنقـل في البدايـة أن أجورها زهيـدة جداً وأحيانا تكون أقل من عشـرة سـنتيمات من اليورو لـكل مئة كيلومتر، ومن جهة أخرى، وبسـبب سـحنتك التي تظهر بوضـوح أنك أجنبي، يقدم لك المحصـلون أحيانا هدية ترافقها ابتسـامة عريضة، وفي كل الأحوال هناك تعرفة موحدة لكامل مسافة الطريق مع عدم مراعاة النقطة التي ستخرج منها او الطريقة التي ستخرج بها.

إلا أنه سـيطلب منك عند مغادرة الطريق أن تبرز بطاقة دخولك، أما إن كنت من دون بطاقة فسـوف تدفع لكامل المسـافة التي يبلغها الطريق، وليسـ مهمـاً عندها النقطـة التي دخلت منهـا، كما لا تسـأل عن طريقة دخولك. ويسـمح هذا لكل امرئ أن يخطط لتنقله على القياس فيستخدم

المداخل والمخارج حسب حاجته تقريبا وحسب المنافذ العشوائية، وقبل كل شيء حسب قانون بذل أقل جهد ممكن.

آه، يا لقانون بذل أقل جهد ممكن! لأنه هو مثلا الذي يدفع سائق السيارة أن يبرز فجأة عند مستديرة ما كي يسلك شارعا أو طريقا يقع مباشرة إلى يساره، ليستخدمه في الاتجاه المعاكس كي لا يضطر إلى سير كل الميدان، وهذا ما يلهم السائق أيضا أن يقطع عدة كيلومترات في الاتجاه المخالف مستخدما الطرف الترابي من الطريق كي يوفر عناء استخدام مستديرة ما، وهذا ما يدفع أيضا أحد المشاة لعبور الطريق السريع أو طريق مديني أو حتى ميدان مكشوف قافزا بين العربات التي تنهب الطريق بأقصى سرعتها، كي يصل بسرعة أكبر إلى منزله أو مكان عمله، ويمكن لنا أن نراقب هذا المشهد بهدوء عندما يتعلق الأمر بشاب خفيف الحركة، ولكننا سنضطرب عندما نرى أفراد عائلة بكاملها، بما فيهم الزوجة والأطفال يجتازون طريقا مرصوفا بالحجارة وسط ضجيج السيارات المسرعة، بل حتى عندما نرى أشخاصا مسنين يتكئون على العكاز.

وبعيدا عن هذا الفولكلور، فكل ما ذكرناه له ثمن، ويقدر عدد الوفيات في إيران على الطرق وفي الشوارع بـ 25000 وفاة سنويا، وبهذا تكون إيران أحد البلدان التي تسجل الأرقام الأعلى في الوفيات في هذا الميدان.

ومخالفات السائقين هنا كثيرة، لكن هناك أيضا قدم السيارات نفسها وضعف الصيانة للعدد الأكبر منها، ناهيك عن التحميل الزائد لسيارات الشحن، إن السيارة في إيران لا تموت أبداً، وبالإضافة إلى سيارة البايكان (وتعني السهم) التي استوردت طرزها المختلفة في

سنوات الستينيات من إنكلترا، والتي بالكاد تتوقف عن العمل، نرى أيضاً سيارات ماركة ديان مجمعة محليا في السبعينيات والتي تتحرك أيضاً بنشاط على مدار الساعة.

أما العجلات فتستخدم حتى تذوب تماما، وتبرز أسلاكها، أما المصابيح فغالبا معطلة وليس نادرا أن نرى سيارات مطفأة الأنوار تجري في ظلمة الليل، وأخيرا، إن عربات الإسعاف معدة أيضاً بشكل ضعيف. وهكذا فالحوادث الخطيرة تتكرر على طول المحاور الكبرى الضيقة والمزدحمة بالسيارات وسيارات الشحن والتي تربط زنجان بتبريز وكرمان بمدينة بان دون أن نتحدث عما هو الأسوأ، وهو الطريق الذي يربط طهران بمناطق الاصطياف على بحر قزوين عبر سلسلة جبال البورز، فعلى هذه الطريق المتعرجة والمحاذية لجروف عديدة، يضعك أقل خطأ، في مواجهة الموت.

وعندما يسوء الطقس في مكان ما، يذكرنا المشهد بجحيم دانتي. فبعد أن أغلقت عاصفة ثلجية طريق أصفهان شيراز مدة يومين، شاهدت صفا طويلا من سيارات الشحن تسير بسرعة ثلاثين أو أربعين كيلومترا في الساعة، بينما تناثرت على جانبي الطريق العديد من السيارات من مختلف الطرز وقد انقلبت على أحد جانبيها، وأمام صفيحة محاطة بشبك معدني يتزاحم الناجون من الحوادث أمام نار صغيرة مرتجلة.

وتجري بالكاد عمليات تنظيف الطرقات من الثلج لتشمل اتجاها واحدا من كل طريق ذي اتجاهين، وبمعدل طريق واحد من كل طريقين، ولا يتم التنظيف باستخدام أجهزة كسح الثلوج، وإنما بقوة السير عليها، ولهذا

يقع الكثير من الحوادث بسبب محاولة العبور إلى الممر الآخر الذي ما زال الثلج يغطيه بسمك عشرين سنتيمترا، وعلى المرء أن يندفع مسرعا إذا ما أراد الوصول إلى مكان آمن قبل هبوط الظلام، حتى لا تتضاعف حينها الأخطار، إذ بالكاد تضيء شمس حمراء ومائلة للغروب هذا الطريق المعزول المغطى بالثلج القذر والطين. نعم، إنه الجحيم بعينه.

وماذا عن الدراجات النارية؟ إنها موجودة في كل مكان، فقد حلت محل الحمير في نقل الأشخاص الفقراء والمتواضعين، ونقل البضائع أيضاً. ويبدو أن الدراجات ذات السرعات العالية قد منعت تماما وبسرعة عند بداية الثورة لأنها استخدمت في عمليات اعتداء ضد النظام عند بداية الثورة. لذلك لا يوجد إلا الدراجات الصغيرة بمحركات 125 سم مكعب، وهي تستخدم بطريقتين.

فالشباب سواء ركبها واحد أو اثنان يستخدمونها وكأنها خيول في ميادين القتال. ترى الواحد منهم يتأرجح متلويا بين السيارات، أو يقود دراجته فوق الرصيف، عندما يجد الطريق مزدحما، وكثيراً ما يتجاهل الشارة الحمراء، أو يستخدم الطرق المخصصة لسيارات الشحن الكبيرة. كما يندفع بدراجته بأقصى سرعة، ثم يوقفها بشكل صاعق ليشب بها من جديد كالفرس الجموح. وباختصار نحن أمام لعبة كبرى سينما، ونشوة السرعة.

في هذا النوع من اللعب الذي يشابه لعبة الروليه الروسية، سيكون الموت والحوادث الخطيرة المصير الذي لا مفر منه، وقد ألزم رئيس الشرطة الوطنية، راكبي الدراجات النارية، بارتداء الخوذة وتحت طائلة الحجز

لكل دراجة مخالفة، وربما نجح تقريبا في فرض هذا النظام، إنما يلاحظ أن الكثيرين من راكبي الدراجات الصغيرة لا يضعون الخوذة على الرأس بل يدفعونها إلى الخلف لتستقر عند الرقبة وأعلى الظهر، وذلك من باب التحدي، ومع أن الهدف من فرض الخوذة هو حماية راكب الدراجة، إلا أن الحوادث مازالت تكلف غاليا، بسبب الخسائر التي تحدث بين المشاة.

وهناك الاستخدام العائلي للدراجة النارية، وفيه تصبح الخوذة من اختصاص الأب فقط، أما الزوجة فليس لها ما يحميها إلا بركة الشادور. وكذلك الأطفال تترك سلامتهم لعناية رب العالمين، والخير هنا أن القيادة العائلية يصحبها الحذر؛ لأن السائق يشعر أنه مسؤول عن عدد من الأرواح.

هذا طفل بين الرابعة والثامنة من عمره يتلاءم حجمه ليركب أمام والده على خزان الوقود، يداه مثبتتان فوق المقود إلى جانب يدي أبيه. وأقول بشكل قاطع إنه وهو في هذه الحال لا يقبل أن يكون الملك ابن عمه كما يقول المثل عندنا، أما الابن الأكبر فيحشر نفسه بين والديه، وعندما يكون عدد أفراد العائلة أكبر بقليل، يجلس الابن الثالث بشكل أو بآخر خلف أمه بين آخر المقعد وصندوق الأمتعة، وأحيانا يستطيع الناظر أن يميز بالإضافة لما سبق، وبين طيات الشادور طفلا رضيعا ملتصقا بأمه.. ولا تستطيع هذه الدراجة التعيسة ذات المئة وخمسة وعشرين سنتمترا مكعبا والتي تنوء بحملها إلا السير ببطء، وقد لا يستطيع سائق سيارة مسرعة أن يمر أمام هذا الركب المتأرجح أن يخفف من سرعته إلا إذا أدرك ضرورة ذلك قبل مسافة مناسبة، ولكنه في كل الأحوال سيشعر بالاضطراب أمام إمكانية الالتحام التي قد تُلقي بأربعة أو خمسة أشخاص إلى الأرض.

بين هذين النموذجين من القيادة هناك نموذج ثالث متوسط يستعير من هذا النمط أو ذاك، حسب الظروف. إنها القيادة المهنية لناقلي البضائع، إذ بإمكان السائق نقل ثلاث أو أربع من قطع السجاد أو كومة من علب الكرتون، حيث يفرض وزن الحمولة وحجمها على الأب أن يقود بنفسه. أما إذا كانت الحمولة أخف، فقد يوسوس شيطان الإغراء للسائق الشاب بلعب دور البهلوان، وكذلك يدخل تحت هذا العنوان من التصنيف قيادة الخطيب للدراجة برفقة خطيبته، أو ببساطة أي فتى وفتاة، لديهما من الحكمة أو الجنون، الكثير أو القليل حسب قوة نبض الفتى. وتمتاز الدراجة الرياضية بفائدة مضاعفة، ففيها النشوة المشتركة بسبب السرعة والخطر المحدق من جهة، والتصاق الأجساد الذي يزداد قوة مع ازدياد السرعة من جهة أخرى.

ويدهش المرء كيف تتسامح الجمهورية الإسلامية إزاء الاختلاط المضطرب في استخدام فتى وفتاة لدراجة ذات عجلتين وهو أمر شائع جدا، بينما تمنع النساء بموجب قانون غير مكتوب من قيادة الدراجة النارية بمفردهن، واللاتي سيكنَّ موضع انتقاد المجتمع المدني، أما في سيارات الأجرة العامة، كما في كل مكان آخر، فلا يسمح للرجال والنساء في كل الظروف بأي تماس جسدي بينهم، ولا حتى بأطراف الأصابع، ولا اقتراب شديد بينهم وبينهن، قد يفرضه ظرف ما.

وبالمقابل من المفيد أن نؤكد أن الكثير من النساء يقدن السيارة، وهذا شيء لا يمكن التفكير فيه في بلدان مجاورة ولكنه ليس من اللائق أن تشاهد كما يحدث في بلداننا الأوروبية امرأة تقود سيارتها وبجانبها رجل. رغم أن بعضهم تحدث عن نساء يعملن سائقات في سيارات الأجرة أو سيارات ركوب كبيرة.

وما استطعت أن أتحقق منه بخصوص مسألة القيادة في حي شعبي كبير في طهران ومن خلال تنقلي المنتظم فيه أن الكثير من النساء يتعلمن قيادة السيارة وبنسبة تفوق الرجال، وفي هذه الحالة يجب أن يكون المدرب امرأة. وتدل الإحصائيات المتكررة ـ وهذا ما أدهشني كثيراً ـ أن من بين كل أربعة طلاب في مدرسة تعليم القيادة في هذا الحي الشعبي هناك ثلاث من النساء، ماذا تعني هذه الظاهرة التي أثارت انتباهي وانفردت بها من بين كل علماء الإثنيات؟ بالتأكيد هن يتمسكن بفرصة تعلم قيادة السيارة لأنهن يمنعن من ركوب الدراجة النارية، رغم أنهم قد يتسامحون معهن إن ركبن دراجة عادية. إنه وجه آخر من وجوه مراوغة المجتمع الإيراني تجاه الثورة الإسلامية.

وأخيرا أجد العذر للكثير من سائقي سيارات الأجرة الإيرانيين عندما أتذكر حادثا ترك في نفسي أعمق الأثر، فقد كنت في مدينة «بام» في سيارة أجرة جديدة تماما وفي حالة جيدة، لذلك فهم يؤجرونها عادة للأجانب. توقفت السيارة لأننا كنا بانتظار شخص آخر، وقد وقفت أمامنا وعلى بعد مترين تقريبا سيارة شحن صغيرة وفيها شابان يافعان مابين الثالثة عشرة والخامسة عشرة، وكي يقتلا الوقت، أدار أحدهما محرك السيارة محاولا قيادتها، ويبدو أنه كان مرتبكا بسبب عدم خبرته، فأدار بشكل عفوي السيارة كي تتراجع إلى الخلف، وهذا ما حدث فعلا، رجعت السيارة إلى الوراء وارتطمت بسيارتنا فخطت على الهيكل جرحا عريضاً.

خرج السائق ليتفقد الأضرار، ونظر عن قرب إلى وجه مرتكب الجريمة وانتظرت أن أشاهد عملية تأديب تستخدم فيها العضلات، أو على الأقل البحث عن الوالد المسؤول، ولكني شاهدت السائق يعود إلينا

ويأخذ مكانه بهدوء، وعلى وجهه علائم الحيرة، فسألته: كيف، أراك لم تفعل شيئاً؟.فأجابني: «بالطبع لا، لنر، إنه مجرد طفل». فقلت له: «أنت فعلا إنسان لطيف». فرد قائلاً: «لست فعلا كذلك، ولكني أحاول أن أكون مسلما حقيقيا».




@Ahmedyassin90

7

الملالي والكهرباء

المشاهد الطبيعية في إيران مشاهد عظيمة، لكنها مليئة بالأعمدة الكهربائية التي تنبت كالأشواك في كل مكان وحتى في قلب الصحراء المقفرة، ويمر المرء بشكل متكرر بصفوف من الأعمدة، من خشب أو إسمنت تمتد حتى الأفق، ولا يعرف النقطة التي بدأت منها ولا النقطة التي ستنتهي عندها، وتمتد الأعمدة أحيانا على طرف الطريق وتكثر في الساحات، وأحيانا تراها معزولة لا يجاورها شيء، وإذا ما دفعك الفضول لمتابعة هذه الأعمدة فقد تسير عشرة أو عشرين كيلومترا في أرض معزولة تماما قبل أن تقع عيناك على مزرعة أو ما هو أقل من ذلك، خمس أو ست خرائب من الطين والقش تسرح أمامها بعض الخرفان وبضع دجاجات.

وقد تجد من وقت لآخر كلبا متمددا فوق سقف شرفة، وقد فتح عينيه عند اقتراب زائرين، ويحمل العمود الأخير قاعدة مصباح مضاء ليل نهار. وعندما يهبط المساء، تتسرب أنوار خافتة من شقوق الأبواب والنوافذ، وربما يصلك نور أزرق ينبعث من جهاز تلفزيون. ويشعر المرء أنه فعلا في آخر العالم، لكن آخر العالم هذا ينعم بالكهرباء بفضل الجمهورية الإسلامية. وفي مثل هذه الأماكن تقدم الكهرباء مجانا، لأنه لا يتصور أن يأتي محصل ما إلى هذه البقاع المعزولة كي يراقب العدادات.

وقد شهدت بداية الثورة قفزة حقيقية لإيصال التعليم والرفاه إلى الجماهير المحرومة، ومازالت هذه القفزة بادية للعيان، فكل الأطفال، أو تقريبا كلهم، يتلقون على الأقل المراحل الأولى من التعليم. كما يستفيد القسم الأكبر من الأحياء ومعظم القرى البعيدة من مستوصف مجاني يشرح فيه اختصاصيون وبشكل خاص للأزواج الجدد مبادئ الحياة الجنسية وموضوع الحد من النسل.

وقد أهمل الملالي مدة من الوقت موضوع الإنجاب، لكنهم أدركوا أن البلاد لن تستطيع إلى ما لا نهاية تحمل نسب الإنجاب الطبيعي التي فرضت نفسها في غياب سياسة طوعية. ويشكل الشباب اليوم ذكورا وإناثا، الجيل الأخير من الإنجاب الكثيف الذي مارسه الآباء والأمهات: وذلك قبل أن يبدأ انهيار هرم الأعمار.

وتدور نسبة الإخصاب الفعلية عند النساء الإيرانيات الآن حول طفلين اثنين، وهي تشبه نسبة الإنجاب المرتفعة في الغرب، ويرى المجتمع في هذه النسبة علامة على الحداثة، وينظر إليها بشيء من الفخر، ويشير ملالي إيران إلى أن الإسلام لا يمنع الإنجاب بلا حدود، ومقابل ذلك توزع حبوب منع الحمل على النساء الشابات مجانا في الأرياف، أما وسائل منع الحمل الأخرى فمتوافرة في الصيدليات بشكل ملحوظ، وثمنها رخيص بحيث تصبح في متناول الجميع.

ومنذ وقت قريب جداً أدمجت وزارة الجهاد في وزارة الزراعة وأصبح اسم الوزارة الجديدة، وزارة الجهاد الزراعي.. إذاً لم يعد شأن هذه الوزارة متعلقا بشن الحروب على الكفار، حروب ابن لادن، بل يتعلق بالحرب على

التخلف في الميدان الريفي. وما يثير الفضول حقا، أن كلمة الجهاد تترجم في وكالات الأنباء الغربية بمفردة «الحرب المقدسة»، وهي كلمة لا تخلو من معنى خاص في أرض الإسلام، وقد أدت هذه الحرب «المقدسة» في الداخل إلى نتائج إيجابية، فعندما نتساءل عن حال الناس في القرى يجيب الكهول أن حياتهم هي على الأقل مرضية، وهذا تصريح يندر أن نسمع مثله في القسم الأعظم من أرياف العالم، أما الشباب فيشكون من الملل والبطالة لكنهم بوجه عام لم يعودوا يواجهون الفقر المذل.

والأمر نفسه في المدن الكبرى، لاشيء يشبه مدن الصفيح في أمريكا اللاتينية، ولا شيء يشبه أحياء الغيتو في ضواحينا، ومع ذلك، لدى إيران مهاجرون غير مرغوب فيهم، يصل عددهم إلى مليون لاجئ أفغاني بالإضافة إلى ست مئة ألف عراقي من حرب الخليج الأولى، وقد جاء وقت كانت فيه إيران البلد الأول في العالم في استقبال اللاجئين، وقد تم تقريباً دمج كل هؤلاء، لكن ليس من دون مشكلات وأضرار، وليس من دون احتكاك، و مع محاولات دائمة دون توقف لترحيلهم إلى مخيمات ومناطق محمية.

وعندما تجولت في بداية إقامتي في الزوايا الشعبية في طهران، فوجئت كما فوجئت زوجتي بأنها لا تختلف جوهريا عن الأحياء الأخرى في المدينة. لكن الأبنية هنا أكثر تواضعا، والكثافة السكانية أكثر ارتفاعا، وكذلك التلوث البيئي، طالما أن هذا التجمع السكاني يمتد على منحدر طويل في سفوح جبال البورز، وهناك ما يزيد عن سبع مئة متر تفاوت في الارتفاع بين المنطقة العليا والمنطقة السفلى في طهران. وهكذا تتركز الأحياء الفقيرة في المنطقة السفلى، في جنوب طهران، وبالقرب من المنطقة الصناعية.

وأخيرا، لدى كل فرد في إيران - أو تقريباً كل فرد - سقف يحميه، ولديه في الداخل ما يمنحه الدفء في الشتاء. وهناك بالتأكيد عدد قليل جداً من الناس ليس لديهم سكن ثابت، كما في باريس. والشوارع نظيفة، وتكنس بشكل جيد، وتجمع القمامة بشكل منتظم في جنوب المدينة وشمالها وقد بذل النظام الإيراني جهداً كبيراً لنشر المساحات الخضراء في كل مكان تقريباً، واستنادا إلى كل هذا يجب الإقرار أن النظام الإسلامي عمل بشكل جيد لإدارة الهجرة الداخلية، هجرة سكان الريف إلى المدن، هذه الهجرة التي بدأت زمن الشاه ولكنها تسارعت منذ ذلك الحين. ولم يحاول النظام أن يوقف بشكل سلطوي الحركة نحو المدن كما فعل الاتحاد السوفييتي مثلا حيث استخدم جوازات سفر داخلية، وكان ما فعله الإيرانيون هو محاولة توجيه هذه الحركة عن طريق تقديم ميزات اجتماعية لتحويل هجرة الأرياف نحو البلدات والمدن الصغيرة، ولكن النجاح كان متواضعاً.

وبينما كانت غالبية الشعب الإيراني قبل ثلاثين عاما ذات طبيعة فلاحية، فإن غالبية المجتمع الآن أصبحت مدينية، والفشل الذريع للثورة الإسلامية سواء في المدينة أو الريف هو البطالة بين الشباب، وهو موضوع سأتناوله فيما بعد.

ولنقدم مثالا آخر، فقد نجح النظام في تطوير الجامعات، التي تضم حاليا مليوني طالب، ويتوزع غالبية الطلبة بين الجامعات الحكومية والجامعات الخاصة، والتنافس بين الطلبة شديد للوصول إلى الكليات الأفضل، وفي القطاع العام، تجري مسابقات على المستوى القومي ويتم وفق نتائجها توزيع الطلبة على الكليات، وبهذا الشكل يمكن لطالب من

طهران أن يجد نفسه في جامعة محافظة أخرى، ولكن معظم الطلاب المتألقين من المحافظات قد يكون نصيبهم في جامعة طهران وهذا ما يسهل ضمهم إلى النظام.

وبالطبع، تفتقر الجامعات العامة للتجهيزات، وهي في الوقت نفسه مزدحمة بالطلاب فوق طاقتها، ولهذا السبب تتصف برامجها بتعليم المواد النظرية صعبة الفهم والتي لا تنمي القدرة على الحوار والإبداع. لذلك يكتسب هؤلاء الطلبة القليل جدا من الخبرة العملية، أو لا يكتسبونها على الإطلاق، بسبب النظريات التي أشبعوا بها، وهذه الظاهرة منتشرة في كثير من الجامعات، وعلى الطلبة أن يصارعوا بقوة لاختراق هذا الوضع وأن يمتلكوا دوافع قوية لذلك. وإذا ما حافظوا على هذا الاندفاع،بعد انتقالهم إلى الحياة العملية فإنهم يصنعون من أنفسهم أطباء ومهندسين ومعماريين وفنانين محترمين إن لم نقل ممتازين، وأما ما يتعلق بدراساتهم العليا، فيسافر معظمهم غالبا إلى الخارج كي يكملوا تكوينهم العلمي وأينما حلوا فهم ينالون احترام الجميع.

وفيما يتعلق بإدارة الداخل فقد طبعت الجمهورية الإسلامية البلاد بطابعها، وما هو غريب حقا أن هذا الطابع اتسم بالتفكير في البداية باقتداء النمط الأمريكي، المنتشر في كل مكان في الولايات المتحدة، فقد فضلت الثورة ما هو فردي على ما هو جماعي، ففي الوسط المديني كان للسيارة مرتبة متقدمة على المترو، وفي الوصول إلى الريف كان لطريق السيارات أو السفر الجوي الأفضلية على سكة الحديد، وأما نقل البضائع فقد كان لسيارات الشحن التفوق على القطارات.

وكانت النتيجة نصف مرضية، فالكثافة السكانية في طهران بملايينها الاثني عشر ظهرت وكأنها نموذج بائس من لوس أنجيلوس، لقد اهتموا بالطرق السريعة وبطرق السيارات لبناء شبكة مدينية تتصف بفيضان من السيارات المتجهة في الصباح جنوبا إلى أماكن العمل، وطوفان آخر في نهاية النهار متجه إلى الشمال نحو أماكن السكنى، وفي هاتين المدتين يحدث تقريبا وبشكل دائم الاختناق المروري الكبير.

كم مرة احتجنا لساعة كاملة أو أكثر لتلبية دعوة ما؟ وعندما تقع «الجلطة المرورية» قد تمر أحيانا ساعة ونصف لا تقطع بنا السيارة فيها أكثر من نصف الطريق، لذلك نختار أن نعود أدراجنا ونتصل بمضيفنا كي نعتذر له عن تلبية الدعوة، ومن المفيد التوضيح في هذه البلاد أن ألفي سيارة جديدة تسجل كل يوم في إيران نصفها لسكان طهران فقط.

حتى كبار المسؤولين في النظام يقعون أيضاً في مصيدة اختناقات المرور هذه، لأنه عندما تتجاوز الكثافة حدا معينا تعجز حتى دوريات شرطة المرور من راكبي الدراجات النارية عن فتح الطريق، وفي إحدى المرات كنت أرافق زائرا أجنبيا هاما لمقابلة رئيس الجمهورية، فحشرنا في أزمة مرورية حادة، ووصلنا إلى قصر الرئاسة متأخرين ساعة كاملة عن موعدنا. ويبدو أن هذا الأمر لم يثر أحدا من الإيرانيين. وأعتقد أن رئيس الجمهورية نفسه قد عانى في ذلك اليوم مثلنا من هذه الفوضى نفسها إذ كان عائدا من إحدى المحافظات.

بالتأكيد تملك طهران شبكة سيارات نقل كبيرة لها ممرات خاصة بها وفي حالة جيدة قد تسبق حتى باريس.ولكنها مع ذلك لا تكفي، ويشعر

المــرء بالمعانــاة وهو يرى الصــفوف الطويلة أمام مواقف هذه الســيارات في ســاعات معينــة من النهار، ثم تكوم الناس داخلهــا: الرجال في الأمام والنســاء في الخلــف وبشــكل ملــزم للجميــع، ولكــن عدم وجــود الممرات المخصصة للسيارات الكبيرة المذكورة آنفاً في كل مكان، فهي تعاني أيضا من الاختناق المروري.

ولا بد من كلمة عن سيارات الأجرة العامة، لقد أدت الحاجة الماسة لها إلى ازدهــار عمل الســيارات غير النظامية الموضــوعة في الخدمة العامة. وتكفي إشارة واحدة عند تقاطعات الطرق السريعة وفي أي مكان آخر عند المحــاور الكبرى، أو حتى ببســاطة الوقوف وقفة انتظار لدفع الســائق إلى التوقف، بعد أن يكون قد حمل في ســيارته عددا من الأشــخاص، فتخبره عــن المكان الذي ترغب الوصــول إليــه، فينقلــك إن كان يتوافق مع الجهة التي يقصدها هو بركابه، ويعيق توقف السيارات المتواصل التي تنقل أثناء الطريق خمســة أو ستة ركاب مضغوطين إلى بعضــهم بعضاً، تدفق حركة السير فعلا.

هنــاك أخيرا المــترو، أو ظل مــترو، لأنه لا يعمل إلا علــى خطين فقط. الأول شــمال ـ جنوب، والثاني شــرق ـ غرب. ولا ينقل هذان الخطان أكثر من ألف وخمس مئة مســافر في اليوم، بينما يســتطيع المترو الذي يســتحق هذا الاســم في عاصــمة كطهران نقل خمسة او ســتة أضعاف هذا العدد. وقد تم تقريبا إنجاز خط شــرق ـ غرب، أما خط شمال ـ جنوب فيفترض أن يكون قد وصــل هذه الأيام إلى أقصــى جنوب المدينة حيث يقع ضــريح الإمــام الخميني، ولكن مازال عليهم إنجاز القســم الأصــعب، ولا يعرفون متى يمكنهم الوصــول إلى أقصى نقطة في الشمال على سفح الجبل، الذي

يصبح في هذا الجزء شديد الانحدار، وتحل الصخور محل الرسوبيات في الطبقة السفلى من التربة.. هذا ما استطاعت الثورة إنجازه خلال ربع قرن بينما كان لديها الفرصة للقيام بعمل كبير سيبدل حياة سكان العاصمة لتأكيد صدقية دعوتها الجماهيرية. ولربما كان صحيحا أن الثورة وجدت في مترو طهران (كما وجدت في المحطات النووية التي سنتكلم عنها فيما بعد) أحد المشاريع الجنونية جدا للشاه، ومن هنا نستنتج أن التباطؤ الذي مارسه النظام في تنفيذ المشروع لم يكن بلا سبب.

وقد تحدثنا عن الازدحام في الطرق العادية والطرق السريعة، ولكن ماذا نقول عن النقل الجوي؟ لم يصل عدد المقاعد التي تقدمها الطائرات إلى الحجم المطلوب، رغم أن معظم الطائرات تطير بكامل استيعابها. ولم تحقق شركة الطيران الوطنية Iran Air التي تستثمر هذه الطائرات الأرباح المرجوة، لأن ثمن البطاقة محدد بسقف معقول أدنى من تكلفتها.

وتسعى شركة الطيران الوطنية أن تقدم لركابها أفضل خدمات ممكنة إنما يحول دون ذلك عدم تمكنها من تطوير وتحديث أسطولها الجوي بسبب الحصار الأمريكي المفروض على كل أشكال التعامل التجاري مع إيران في أعقاب أزمة الرهائن، أي منذ ربع قرن. وليس هناك من وسيلة لشراء طائرات من الغرب عمرها أقل من سبع سنوات،لا من بوينغ ولا حتى من أيرباص؛ لأن الشركات الأوروبية تحافظ على مصالحها الكبرى مع الولايات المتحدة، ولا تستطيع أن تغضب زبونها الرئيس عبر الأطلسي. حتى الطائرات المستعملة، يخشى الكثير من البائعين المحتملين سخط الولايات المتحدة، ويفضلون تجنب المخاطر، وبالتالي فهم يحجمون عن بيع أي طائرة لإيران.

لماذا هذه الخيارات الإيرانية ولماذا هذه المعوقات؟

بالنسبة للخيارات الأساسية، يجب أن نتذكر أن أفضل الطلبة الثوريين من مهندسين ومهندسي عمارة ومهندسي مدن، كانوا في الحقيقة يدرسون على نفقة الشاه في الولايات المتحدة، ولكنهم وجهوا له الإهانات عبر أسوار البيت الأبيض عندما قام بزيارة للولايات المتحدة تلبية لدعوة من الرئيس جيمي كارتر، حتى إنهم قذفوه بالغاز المسيل للدموع. وعلى كل حال عاد هؤلاء الطلبة إلى إيران يحملون معهم رصيدا ثقافيا وتكنولوجيا صنع في الولايات المتحدة، واندفعوا لبناء وطنهم، وترى الناس اليوم آثار جهودهم هذه.

أما ما يتعلق بالمعوقات في طريق إنجاز المشروعات فالأسباب متعددة فهناك أولا ـ وهذا ما ذكرته سابقاً ـ العقوبات الأمريكية، ففي كل قطاع إستراتيجي نجد عقودا لم تكتمل وأجهزة أو أقساما من أجهزة منع بيعها فعليا إلى إيران، ونحن ملزمون بالاعتراف أن هذه العقوبات أوقفت حركة التطوير الاقتصادي والتقدم التكنولوجي، لقد كانت ذات فاعلية كبيرة وبشكل مخيف ضد تحقيق الرفاه للناس، ناهيك عن محاولة إسقاط النظام نفسه.

وهناك أيضا الحرب ضد العراق التي امتصت خلال ثماني سنوات قسماً كبيراً من ثروات وطاقات البلاد من أجل حرب مفروضة كما يطلق عليها الإيرانيون، ولكنها حرب أطالوها هم أكثر من ست سنوات دون فائدة، و انتهت عام 1988 ليقف كل طرف عند حدوده، وكان صدام راضيا عام 1982 بنتيجة كهذه بسبب الموقف الصعب الذي كان يمر به.

وهناك أيضـاً فيما يتعلق بهذا التأخير في إنجاز المشـروعات سبب أقل وضـوحا وهو الجمـود الكامل في الجهاز المصـرفي الإيـراني، والذي جرى تأميمه مع الثورة، فقد عجز عن تعبئة المصـادر اللازمة لتمويل المشروعات الكبرى لصالح البلاد وعلى المدى الطويل، ولهذا تمول المشروعات بواسطة دفعات مفاجئة عن طريق تحرير بنود الميزانية، كل هذه الأسباب جعلتنا نرى على طول الطرق، وفي قلب طهران كثيراً من المشروعات غير المنجزة.

عندما زرت الأعمال الأولى من إنشاء المترو في أصفهان، قال لي رئيس المشـروع بكل بسـاطة، إنه يظن أن عشرين عاما سـتمر قبل انتهاء الخط الأول، وفي كل طهـران يمكـن للمـرء أن يشـاهد ومنذ سـنوات أعلى برج للتلفاز بارتفاع مئتين أو ثلاث مئة متر شـبيها ببرج برلين الشـرقية نمطا من المطعم الدوار، وكان يفترض أن يضـم البرج في طوابقه السفلى فندقا ضـخما ويجثـم في قمته هذا النمـط من المطعم الـدوار، ويثير هذا المبنى منذ ثلاثين عاما دهشـة السواح، فالإسـمنت قد صب، وكل ما هو أساسي للبرج موجود ولكن لا شيء يعمل منذ 2005، وما زالت الورشة متوقفة عن العمل منذ أربع سنوات، مدة إقامتي في طهران.

ونرى الشـيء نفسـه في ورشـة بناء مسـجد طهران الكبير المخصص لاستقبال المصلين في صلاة الجمعة، التي تجري مؤقتاً منذ خمس وعشرين سنة في الحرم المركزي لجامعة طهران، ويمكن رؤية مآذن المسجد الأربعة الضـخمة لكنها ما زالت على الهيكل الإسـمنتي تحيط بها رافعات ضخمة سـاكنة بلا حراك علـى جانب الطريق السـريع الذي يخـترق المدينة من الشمال إلى الجنوب.

وتتكـرر الحالـة نفسـها في مطار الإمـام الخميني الـدولي الذي بدأ إنشـاؤه منذ عشـرين عاما، وبعد رقاد لورشـات العمل اسـتمر عشـرين عامـا فقد دشـن المطار عام 2004، وقد وضـع في العمـل فعلا لكن ليوم واحـد فقط، حيث أقلعت منه طائرة يتيمة ثم منعت الطائرة الثانية من الهبوط من قبل الباسدران، الذين لم ترضهم حصتهم من استثمار هذا المطـار. وكمـا هي الحال في كثير من المشـروعات في إيـران، فقد افتتح المطـار جزئيـا في نهايـة 2005، ليحـل بالتدريج محل المطـار القديم في مهراباد الذي أخذ يحاصـره التوسع العمراني لمدينة طهران في السنوات الثلاثـين الأخيرة. ومع ذلك فلم يرض هذا الانتقـال إلى المطار الجديد سـكان العاصمة الذين أصبح عليهم أن يقطعوا خمسا وثلاثين كيلو مترا في الصـحراء لأخذ الطائرة، بينما كانوا يأخذونها من المطار القديم في مركز المدينة.

ولحسن الحظ، ومن دواعي العزاء أن الإيرانيين يملكون جزيرة كيش. لقـد بدأ الشـاه يعمل على تحسـين هذه الجزيـرة الصـغيرة الواقعة على الخليـج العربي كـي يجعل منها ناديا للقمار، وكانـت الكونكورد منذ بداية تحليقها قادرة على الهبوط في مطار هذه الجزيرة، وقد أغلق الكازينو الآن ولكن الملالي قد حافظوا أخيرا على وضع الجزيرة باعتبارها منطقة حرة وحولوها إلى منتجع سـياحي حيث يستطيع الإيرانيون خلال ساعة واحدة القدوم إليها للاسترخاء في فنادق متواضعة، وفنادق فخمة، وفنادق فائقة الفخامة، ويتمتعون بمشتريات معفاة من الضرائب.

وتشـبه المراكز التجاريـة في الجزيرة المحلات التجاريـة في المطارات الكـبرى، فيما عدا الكحول بالطبع، وحتى في كيش على النسـاء أن يغطين

شعورهن، ولا حاجة للتذكير أنه لا يسمع للرجال والنساء الاستمتاع بالاختلاط على الشواطىء ذات الرمل الناعم والمحيطة بالجزيرة، وأهمية هذه التفاصيل أنها وحدها التي تذكرك بأنك في إيران، أما كل شيء آخر فأنت بالتأكيد في بلاد أخرى.

ولنكمل حديثنا عن حركة المرور الفوضوية وسيارات القمامة، كل السيارات مصانة بلا عيوب، وتسير بسرعة لا تتجاوز الخمسين كيلو مترا في الساعة، حتى في الشوارع الخالية، وفي الطريق تشاهد فوارغ بلاستيك متروكة للريح، وأنقاضاً، ومتروكات، إنما كل شيء أبيض ونظيف ولامع بما فيه المكاتب الحكومية. وهنا، رجال شرطة دمثون، يقومون في آن واحد بحفظ الهدوء والنظام، على ضوء صالات السينما الضعيف يتنفس الجميع الدعة والحداثة، وتجد نفسك في المحيط الخيالي «لترومان شو» هذا الفيلم الأمريكي الذي يروي قصة شاب ساذج يقضي بعض الوقت ودون أن يدري في قرية وهمية مبنية بكليتها من الديكورات، وجميع سكانها من الممثلين الذين يقومون بتصوير مسلسل تلفزيوني.

من كل هذا نريد أن نقول: إن الإيرانيين هم بكل معنى الكلمة أكثر الشعوب تفاخرا، وتبرهن جزيرة كيش أنه بقليل من الجهد وقليل من الأفكار تستطيع إيران أن توجد هي أيضاً عالما متمدنا طاهرا، وتستمتع في الوقت نفسه بنمط المجتمع الاستهلاكي الغربي، وأخيرا يستطيع الإيراني أن يشير إلى أبناء عمومته في أمريكا أن وطنهم الأم ليس محكوما عليه بالتخلف إلى الأبد.

وما يثير الدهشة أكثر، أن هذا الوضع قد تحقق بواسطة النظام الحالي وبموافقته، وهذا يقودنا إلى سؤال أكثر شمولية، هل كل هذا

التقدم الذي حققته إيران في جيل واحد (الكهرباء، الطرق السريعة التعليم الأساسي، تحديد النسل، الجامعات، جزيرة كيش) هو بكامله من منجزات الجمهورية الإسلامية فقط؟ ألم يكن كل هذا في صلب طموحات الشاه،؟ وكل ما تحقق كان يمكن أن يتحقق، وربما بشكل أفضل، دون هذه الطفرات الثورية؟

وبالطبع لن يستطيع أحد الإجابة عن هذا السؤال، لنقل ببساطة إن الشاه الذي أراد أن يجعل من نفسه طاغية متنوراً، لم يكن في الحقيقة إلا نصف متنور، كان الشاه هشاً ومعقداً وضعيف الثقافة، ولقد عانى دون شك من شخصية والده الطاغية، رضا شاه، مؤسس الإمبراطورية والذي كان مساعد ضابط سابق وعرف عنه ثورات الغضب والعنف، وكان الشاه الابن إلى جانب طموحاته النبيلة نحو شعبه أسير عالم من التردد والأوهام والأخطاء، كان نموذجاً من نبوخذ نصر إنما كان ينقصه نموذج دانييل[1] كي يستطيع ان يتنبأ و يفكك إشارات في أحلامه عن إرهاصات سقوطه. والأهم أن يعمل على منع هذا السقوط. وحقيقة القول، إنه لم يعرف أبدا أن يصغي للآخرين. وتشرح كل هذا قصة قصيرة متداولة فقد استقبل مرة وزيراً سابقاً فقد الحظوة لديه و كان قد خدم البلاط زمن والده رضا شاه، قال الوزير السابق رداً على العديد من الأسئلة التي وجهها إليه الشاه: «ماذا تريد يا سيدي، في زمن والدك ما كنا نجرأ على الكذب، أما في زمانك فلم نعد نجرأ على قول الحقيقة».

(1) عاش مسبيا في بابل وضعه التقليد اليهودي في عداد الأنبياء الأربعة، له سفر باسمه في التوراة كتب عام 165 ق.م. نجا من الموت بمعجزة.

لو جاز لنا ـ وبهذا المعنى نفسه ـ العودة إلى الماضي كي نتنبأ بالحدث قبل وقوعه، لاستطعنا القول إن إيران، كانت تتجه عام 1970 نحو مناخ من الاضطرابات الخطيرة، ولا نعلم إذا كان ما حدث سيحدث بالطريقة نفسها وفي الوقت نفسه الذي وقع فيه لو لم يكن الخميني موجودا. إنما كان لابد في كل الأحوال من دفع ثمن مرتفع، هو ثمن الاقتراب من الحداثة.



8

نزهات الهناء

ليست النزهة في إيران مسألة بسيطة. إنها أداة اللهو العائلية الرئيسة بالإضافة إلى العروض السياسية الضخمة، التي هي، على الرغم من الصور الوحشية التي تعرضها تلفازات العالم، نوع من النزهات الجوالة سيرا على الأقدام.

لنقس نوعيتها على هذه النزهات الأخيرة، ففي احتفالات الثورة السنوية وفي يوم القدس الذي أوجده الإمام الخميني كي يعبر عن ارتباط العالم الإسلامي بالقضية الفلسطينية (وهو يوم يبدو أنه لا يحتفل به جديا إلا في طهران)، يدعى الشعب للمشاركة في مواكب تقام في المدن الكبرى. وعندما يهبط المساء، يعلن المذياع والتلفاز الحكوميان وفي كل مرة عن تدفق ملايين المتظاهرين، ودائما ما يزيد عن المليون في طهران وحدها. وربما كانت الأرقام الحقيقية أكثر تواضعا، ولكن أخيراً، إذا كان الواقع لم يستجب لتوقعات النظام فلا يعوزه اللجوء إلى صور من الأرشيف، وبهذه الطريقة نستطيع أن نرى موكباً جرى في ذروة الصيف تعرض صوره في أخبار المساء في القناة الأولى وفيه أشخاص يرتدون الكنزات الصوفية.

ولو تمعنا في الصور، سنجد الجماهير تصرخ وهي تشدد عباراتها: «الموت لأمريكا»،: «الموت لإسرائيل»، ويرقص الحشد وهو يحرق الأعلام الأمريكية أو الصهيونية، وباستطاعة المشاهد أن يعتقد أن هذا الحشد

جاهز لعبور الصحراء ثم المحيط كي يذهب دون أن يعيقه شيء لسحق الأولى والثانية، ولكن فيما لو تركنا الشاشة والصور المنتقاة التي تتوالى عليها، ونزلنا إلى الشارع، لوجدنا أن الجو بوضوح أكثر تسامحا. وشارك كثير من الناس في البداية بشكل عائلي بما يمكن اعتباره حقبة استجمام في نهاية الأسبوع، أما المحيط العام فهو يشير إلى هذا الجو الشعبي: ستاندات، موسيقى، بالونات للأطفال، باعة متجولون، توزيع أطعمة وأشربة مجانية، ولست متأكداً أن كل الناس جاؤوا طوعاً وبشكل عفوي، إذ يمكن مشاهدة أعداد السيارات الكبيرة الخاصة وهي تنتظر في الأزقة المجاورة، ولكنهم في النهاية ما داموا قد وصلوا إلى هذا المكان كي ينالوا رضى رئيس لجنة محلية أو عضو فيها، فلم لا يقضون وقتا طيبا؟ ولو سئلت واحدة من الصبايا الصغيرات الوديعات التي كانت تسير في الموكب برفقة زميلاتها في المدرسة أو الحي، لماذا تصرخ «الموت لأمريكا»؟ فسوف تجيبك بأنها لا تعرف شيئا.

لنعد الآن إلى النزهات الحقيقية، ولنصل إلى جوهر هذه العادة الشبيهة بالطقوس، والمعقدة، والمنتشرة في كل مكان، يجب أن نصف مكوناتها الرمزية.

أولا: السجادة في الوسط ثم توضع عليها الأغذية ويجلس على أطرافها متربعا كل فرد بعد أن يخلع نعليه، وهي تكرر بهذا الشكل بتمركزها فوق الأرض الفناء الداخلي للمنزل، إنما مع نقوشها التي تمثل أزهار جنان الفردوس، وفي الحقيقة لا يستطيع المرء أن يثمن كل الإيقاعات التي تضمها النزهة الفارسية إلا إذا شرحنا التذوق المسبق للجنة كما وصفت في الإسلام، فهي جنة نزهة لا تنتهي، وكي نحمي هذه السجادة من بقع

الطعام أو الشراب، وهي لن تتأخر في الحدوث، فإنهم يغطونها غالبا بغطاء شفاف من البلاستيك، يشترى بلفافات كبيرة، وقد بدؤوا باستخدام الغطاء نفسه في البيوت في نظام الحياة العائلية حيث يأكلون قعودا على الأرض، وأحيانا، تستبدل الوظيفة التزيينية للسجادة التي يحميها غطاء شفاف، بغطاء من البلاستيك طبعت عليه زهور وصور عصافير، ويشترى هذا الغطاء بالمتر من محلات الخرداوات، ويقطع من «رولو» مستورد من اليابان، وعلى هذه الفسحة أيضا يستمتع الرجال بالقيلولة، بعد أن يكونوا قد تناولوا طعامهم.

بعد السجادة يأتي منقل شواء الكباب وكل ملحقاته، وهو بأشكال مختلفة، كما يمكن له أن يصنع من بقايا أدوات قديمة. وبعد الوصول إلى المكان المحدد للنزهة، يسعى كل فرد لجمع قطع الأخشاب الصغيرة والأغصان الدقيقة التي ستساعد على اشتعال النار، وعندما يتكون الجمر يضعون شبكا توضع عليه أسياخ اللحم التي تبدأ بنشر رائحة الشواء المختلطة بالدخان المتصاعد، فتسر بها الأنوف ويسيل لها اللعاب، وفي الزمن الماضي، كان الرجال، وقد امتلأت بطونهم يدفنون في نفس المنقل كريات الحشيش كي يغوصوا في أحلامهم لبضع ساعات.

ولا تقدم المطاعم في إيران كلها ـ سواء كانت كبيرة أو صغيرة، فاخرة أو مقامة بتواضع على جانب الطريق ـ إلا هذا البرنامج الغذائي الذي يتناقض عمليا مع تنوع الأطعمة التي تقدم داخل البيت الإيراني، ويستطيع من يصل أولا إلى بقعة مناسبة أن يفتتح مطعما بمجرد أن يضع مشواة ينصبها فوق أربع من حجارة الآجر، ويجمع كمية من الحطب، ثم يضم أربع طاولات إلى بعضها بعضاً واثني عشر كرسياً، أو ما هو أبسط من

ذلك، تختين أو ثلاثة والتخت عبارة عن سرير خشبي مجهز بسرعة تغطيه سجادة (تمتلىء مع الزمن بآثار الدهون والبقع المختلفة)، حيث يتناول الزبائن طعامهم عليه متربعين، أما أن يكون كل ما يقدمه هذا المطعم هو شواء الكباب فيبدو لكل امرئ أن هذا أمر طبيعي، ما دام المرء يتناول طعامه خارج المنزل، وخارج الفناء الداخلي العائلي، وهذا يعني أنه في رحلة، لذلك فهو يعيش جو النزهة.

وهناك بالطبع السماور النحاسي المتصل بأنبوبة الغاز المعدة للمخيمات، ويتربع فوقه إبريق الشاي، وهو المشروب الوطني الذي يحتسونه طيلة النزهة، وتوضع إلى جانب السماور علبة السكر المقطع. ولكي تشرب الشاي على الطريقة الإيرانية، يجب أن تدس مكعبا من السكر ما بين باطن الخد واللثة. وهكذا، عندما ترتشف الشاي يصل إلى قطعة السكر فيذيب شيئا منها مع كل رشفة، أما في الطرقات العامة فيوضع السكر في الكأس دون أن يُحرك، لذلك تكون حلاوته متدرجة حسب الوقت اللازم لذوبان السكر. والطريقة الإيرانية في شرب الشاي تعطي انتقالا متعاقبا بين الحلاوة والمرارة، بحيث يصعب التخلي عنها عندما يتذوقها المرء ويعتاد عليها.

ويوضع السماور النحاسي بعيدا قليلا، لأن الناس تضطرب لفكرة أن يقوم الأطفال الذين يجرون في كل الاتجاهات ويتسلقون الأشجار داخله والاكتواء بمائه الساخن، ولكني مع ذلك لم أسمع أبدا بحادثة عائلية من هذا النوع، لذلك فالخطر لا بد أن يكون متكاملا مع السلوكيات، كما هو الأمر في نوع آخر من الخطر المتوقع وهو غياب الحواجز من الشرفات في البيوت التقليدية، ومع ذلك فلم يمنع ذلك أي أم من أن تنام قريرة العين مطمئنة.

وحديثنا عن السجادة والمشواة والسماور، لا يعني أنها كلها موجودة دائما، فسائق سيارة الشحن الكبيرة يتناول فطوره دائما إلى جانب الطريق، وتحل منشفة أو صحيفة أو منديل محل السجادة، وعندها لن يكون هناك كباب ولا سماور، وفي المناطق ذات الكثافة الكبيرة من المتنزهين، كما في الحدائق التي تحاذي نهر أصفهان، والتي تتمتع بشعبية كبيرة بسبب مناظرها المكشوفة والتي لا تحجبها الأبنية، وكذلك على الجسور ذات القناطر، أو على المروج الخضراء المحيطة بالقصر الكبير، أو حتى إلى جوانب الأضرحة التي تشكل أماكن زيارة للتبرك، ولكن الناس لا يتجاوزن أسوارها تعبيراً عن الاحترام، وعندما تتجاوز المجموعة ثلاثة أو أربعة أشخاص، لابد أن يكون لديها أنبوبة غاز لتسخين الطعام وتسخين السماور، وما أتعس الأجانب مثلنا، الذين لم يجهزوا ما يسمح لهم باحتساء كأس من الشاي في هذا الجو البديع، ولكن الأمر لن يتأخر كثيراً، فمن السجادة المجاورة، وبعد بضع نظرات يختلسها الجالسون عليها، تليها بضع ابتسامات ترتسم على الوجوه، سيقترب أحدهم من هؤلاء الغرباء داعيا إياهم لتناول كأس من الشاي.

يجب نقل كل هذا العتاد، وبالسيارة طبعا، أو بسيارة شحن صغيرة مكشوفة يتكدس في صندوقها الأشخاص وأدوات الطعام، وقد يغطى صندوقها إذا كان الطقس بارداً. وكذلك يمكن استخدام سيارات النقل الكبيرة (الباصات) إن لم يتوافر الأفضل، وحتى الدراجات النارية. ومن الملاحظ أنه عند الوصول إلى المكان المحدد، تبقى وسيلة النقل قريبة من مكان جلوس المتنزهين، وهكذا ترى أعدادا كبيرة من المتنزهين منتشرين على جانبي الطريق السريع يتابعون سيل العربات المختلفة،

وغالبا تحت شمس حارقة، ويتساءل المرء كيف تحتمل النساء الملتحفات بالشادور ذلك.

ويقوم الإيرانيون كثيراً بنزهات مسائية وخاصة في فصل الحر فيقصدون منتزهات المدن الكبرى على ضوء الفوانيس وأنواع أجهزة الإنارة الأخرى التي يحملونها معهم، للتخلص من الحر الخانق في الشقق، ولأخذ قسط من البرودة، ويسهرون في حلقات حتى ساعة متأخرة من الليل، وبعد أن يكون الأطفال قد لعبوا حتى استنفذوا قواهم، فناموا في أحضان أمهاتهم وجداتهم وحتى أخواتهم الأكبر منهم.

ولا نستطيع أن نختتم هذا الفصل عن النزهة في إيران دون أن نشير إلى النزهة الكبرى «سيزدا بيدار» التي تتوج احتفالات نوروز، وهو عيد رأس السنة الجديدة في العالم الإيراني والذي يتوافق مع بدء الاعتدال الربيعي.

عندها، وبعد انقضاء الأسبوعين الأولين من آذار، وبعد أن يكون كل شخص قد أتخم بالهدايا والأطعمة والملابس الجديدة في جو من الهستريا الشاملة، يتوقف كل شيء، ويرتد كل الناس إلى حياتهم العائلية. وبدءاً من اليوم التاسع عشر من آذار، أي عشية عيد النوروز يقود الناس سياراتهم في طهران كما كانوا يفعلون في برلين الشرقية في أعوام الخمسينيات ليقطعوا في ساعة أو أكثر، مسافة يمكن قطعها في الأحوال العادية في ثماني دقائق فقط.

وشاهدت مرة في الليل ـ بعد أن تدفق الناس خارج بيوتهم ـ بعض الرجال يقفزون فوق نار مشتعلة وسط طلقات البارود، وهم يرددون عبارة طقسية هي: «يا نار خذي صفرتي وأعطيني حمرتك»، وهي عبارة يطلبون

فيهـا من النـار المشـتعلة أن تشـفيهم من أمراضـهم وتهبهـم قوة الحياة، وتعود هذه العادة إلى طقس زراداشـتي قديم يطلقون عليه عبارة «تشاهار شـامبي سوري». وقد حاول النظام ومدة طويلة أن يمنع هذه الطقوس دون أن يتمكن من ذلك، لذلك اكتفوا الآن بمحاولة ضبطها، وعدم اصطدامها بالأعياد الدينية الإسلامية التي تنظم وفق التقويم القمري، الذي يصادف بالتالي أياما مختلفة في السنة الميلادية.

وتنزوي كل عائلة في بيتها، ليبدأ بعدها التوجه إلى أماكن الاصطياف، كشواطئ بحر قزوين مثلا بعد أن يكون قد تكامل اجتماع الأهل والأقارب. في هذين الأسـبوعين تحتجب الصحف، فتفرض على الناس الاستماع إلى برامج المذيـاع والتلفاز الهزيلة. وتفتح محلات السـلع الضـرورية أبوابها كرهـا. أما محـلات الملابس والكهربائيات فتفتح مسـاء لفترة قصـيرة للإفادة من العائلات المصطافة.

وفي هـذه المدة مـن الأعياد مـن عام 2003 بـدأ التدخـل الأمريكي في العـراق، ولأن الحرب تجـري أمام بوابـات البلاد، فقد تشـكل في المنطقة مشهد جديد، أما الحدث نفسه فقد سقط في حوض عدم الاكتراث العميق، ولم ينتج عنه إلا شـبكة رقيقة جدا من ردود الأفعال الرسـمية، عبر بيانات حررها مسـؤول حكومي ، ربما أملاها مـن منزله الريفي عبر الهاتف على الوسـيلة الإعلامية الوحيدة التي تعمل في تلك الفترة وهي وكالة الصحافة الوطنيـة، إذ إنهـا لا تتوقف عن العمـل رغم الأعياد، أما الأفـراد القليلون الذين أمكن سـؤالهم عن مشـاعرهم، فقد أجابوا بشـكل عـام: «إلهي كي بياند» ومعناها «يا إلهي دعهم يأتون إلى هنا ـ يقصدون الأمريكيين ـ ».

في عــام 2004، وقعــت كارثة من نــوع آخر. ففي أيام النــوروز اختارت الوكالــة الدوليــة للطاقة الذرية أن توفــد إلى إيران بعثــة تفتيش مفاجئة، فلماذا أرادت المنظمة أن تفسد على كثير من العاملين استراحتهم؟ لذلك رفضت الإدارة الإيرانية المواعيد التي جاءت قبل موعدها وطلبت التأجيل. وانطلقت صــيحات الاســتنكار في أوروبا وأمريكا اللتين استشــفتا وراء رد الفعل هذا، أكثر المخططات سوادا، لكن من في بلادنا يقبل عملا كهذا بين عيد الميلاد وعيد رأس الســنة؟ وهل فكرت الوكالة أمام خطر احتجاجات موظفيها؟ وهكذا ولد سوء التفاهم، وصراع الحضارات.

لم نــرو كل هــذا إلا كمقدمة للنزهة الكبرى، ســيزدابيدار. فبعد ثلاثة عشــر يوما من نوروز، يقضــي ســتون مليون إيــراني - وبعبــارة أخرى كل الشــعب الإيراني القادر - يومه خارج المنازل، لا يعيقهم أي شيء يمكن أن يحدث، في ذلك اليوم، تترك البيوت فعليا للشــياطين التي تؤدي ما تشــاء مــن رقصــات الســارابند[1] sarabandes. وتعبث في الزوايا كي تنســحب بعــد ذلك دون أن تشــوش علــى القاطنين حياتهم بقية أيام الســنة، مرة أخــرى نقــول: إن كل هــذا لا علاقة له بالإســلام، إذاً هناك ســتون مليون إيراني ينزلون إلى الشوارع ويندفعون على الأقدام، أو في عربات خشبية، أو في سيارات يحملون معهم عدة النزهة، وسواء أمطرت السماء مدرارا، أم هبــت الريح عاصــفة فلن يتبدل من الأمر شــيء، وفي عام 2002 جرى الاحتفال بســيزدابيدار في معظم أنحاء إيران تحت وابل من المطر استمر من الصباح حتى المساء، ورغم ذلك خرج الناس من بيوتهم في الصباح، ولم يعودوا حتى المساء مبللين بالمطر.

(1) رقصة النبلاء التي انتشرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر في البلاط الإسباني وتتألف من ثلاث حركات، وهناك أيضا موسيقى السربند.

والازدحام عند مخارج المدن هو نفسه وقت خروج المتنزهين وعند عودتهم، ازدحام لا يوصف، ويقول الناس حينئذ إنه من الأفضل أن يكونوا بلا سيارة، ويحلوا في أول زاوية معشوشبة وقريبة إلى منزلهم حيث يمكن الوصول إليها، وغالبا ما يكون هذا المكان مستديرةً مركزية بسيطة عند أحد المنعطفات أو أرضاً تغمرها الشمس تتوسط جادة ما عند طرق متعددة، وحولهم يقف بحر من السيارات، الرفرف لصيق الرفرف، ومزينة غالباً فوق السقف أو الغطاء بباقة من النباتات الخضراء، وغالباً ما تكون من سنابل القمح الذي نَمَا حبه، والذي تقضي التقاليد أن يزرعه المرء في بيته خلال فترة الأعياد، على المرء أن يذهب إلى مجرى ماء فيلقي بحزمة القمح فيه مع فواكه أخرى مختلفة، وخاصة السمك الأحمر رمز الازدهار والذي يشترى أيضاً بمناسبة نوروز، حيث يحتفظ به الأطفال في دورق يضعونه على ركبهم قبل أن يقولوا لهذه الأسماك: إلى اللقاء.

من المفهوم أنه عند خروج الناس من منازلهم يسعون للعثور على نهر، أو على الأقل على جدول، ولكنه طالما أن هذا الأمر غير متوافر دائما في وسط إيران، لذلك تفي بالغرض أصغر ساقية ماء أو حتى قناة في المدينة. وحقيقة القول إن كثيراً من حزم القمح لا تصل أبدا إلى الماء، فبعد ساعة أو ساعتين من السير البطيء بسرعة 10 كيلومترات في الساعة يستطيع السائق أن يسرع قليلاً، فتسقط الحزم المربوطة إلى هياكل السيارات بإهمال من أماكنها لتتناثر على الطرقات، ونحو منتصف النهار، وبعد اجتياز آخر الضواحي في المدن تصطبغ الشوارع ببقع خضراء لامعة تاركة انطباعاً بالسعادة الغامرة.

ويقدر الله أخيراً أن تعثر العائلة على شجرة، وهو أمر مهم: أولا لحماية أفراد العائلة من الشمس أو من المطر، وكذلك لنصب أرجوحة، هي أرجوحة

السعادة عند الأطفال، وهي التي تجعل عيد النوروز ناجحا تماما بالنسبة لهم، ولكن معظم أجزاء إيران تفتقد الأشجار، فهي أكثر من نادرة، ولذلك ليس من ضمان للنجاح في مسعى للحصول على واحدة، وإذا عثروا على شجرة فليس بالضرورة أن تكون أغصانها قوية بما يكفي لتحمل الأرجوحة. ولكن عندما يتحقق كل ذلك، ففخر أي فخر، وسعادة أي سعادة.

وبين النيران التي توقد على الأرض والألعاب النارية التي تضيء السماء، بمناسبة تشاهارشامبي سوري، ومن ثم حوادث المرور، والسقوط من الأراجيح أو الاصطدام بالسماور في سيزدا بيدار، يعتقد المرء أن مستشفيات إيران تمتلئ تقريبا مع انتهاء أعياد نوروز، أما بالنسبة للبيئة، فالثمن ليس بخسا، ففي ملايين الأماكن، تبقى الأرض مغطاة بقشور البطيخ وقشور الفستق وعظام الدجاج ومخلفات أخرى قابلة للتحلل البيولوجي، وهذا أقل الشرور، إذ إن هناك أيضا مخلفات البلاستيك بمختلف الأشكال ـــ أكياس، زجاجات، صحون، أكواب، أغلفة متنوعة، وأكياس البطاطا الشيبس والسكاكر والبسكويت والشوكولا من مختلف الأنواع، والتي ستحتاج إلى سنوات كي تذروها الرياح أو تتحلل في التربة، فيما لو تحللت على الإطلاق.

وأخيرا، لا يبدو أن أحدا يساوره القلق بشان هذه المخلفات، حتى يبدو أن أحدا لا يراها، وإن رآها قد يقول لنفسه إن إيران في تاريخها الذي يمتد آلاف السنين قد خرجت بخير من مشكلات أكثر تعقيدا. لذلك من الأفضل أن ننسى كل هذه المشاهد البائسة ونحتفظ بدلا من ذلك بفكرة أن كل فرد يحمل في طريق عودته الصورة الاستثنائية لبلاد تحولت في يوم واحد إلى فردوس عظيم يتشكل من ملايين الفراديس الصغيرة المتجاورة.

9

الأئمة الأعزاء

يحار المرء عند الحديث عن الأئمة في إيران كيف يبدأ. ربما تكون البداية المناسبة بالتطرق إلى فن التربية.

يؤمن المذهب الشيعي أن محمداً ﷺ هو خاتم الأنبياء، وهو النبي الأخير للأنبياء الذين أرسلهم الله، حيث يُعد آدم هو الأول بينهم، وفيهم يأتي نوح وإبراهيم وموسى والمسيح، ولكن ما يستدعي الحزن الشديد أن نرى انتفاء كل إمكانية لإغناء الوحي بعد وفاة الرسول ﷺ، وقد ترك محمد ﷺ بدوره ـ وبتزويج ابنته الوحيدة فاطمة ـ سلسلة مؤلفة من اثني عشر إماماً، يتصفون مثله بالكمال «العصمة». ومهمة هؤلاء الأئمة كشف معاني ما هو مستور، لمن هم أهل لتلقي المعاني المخبأة في الرسالات المقدسة التي أنيط بها الأنبياء[1].

وهكذا يبدو الرسول وكأنه الحلقة الوسيطة في تاريخ العلاقة بين الله والإنسانية، فقبله كان الموروث الظاهر وبعده كان الموروث الباطن. ونجد هنا التوتر الذي تتصف به كل الديانات الكبرى الناتج عن وجود حقائق يمكن للجميع الوصول إليها، لكسب عامة الناس، وحقائق جوهرية لا يمكن

---

(1) هذا الكلام مخالف لأصول العقيدة الإسلامية الصحيحة؛ لأن العصمة للأنبياء فقط. وعلى هذا فلا أساس له من الصحة عندنا.

بلوغهـا إلا لقلـة من الناس بعد قطـع طريق طويل من الدراسـة والبحث، ولذلك يجب حجبها عن ضوء النهار[1].

وقد لمع من الأئمة الاثني عشـر أربعة منهم بشـكل خاص. أولاً: علي رضي الله عنه وهو صـهر الرسول، الذي أبعد عن الخلافة من غير وجه حق بعد وفاة الرسـول[2]، وقد أصـبح فيمـا بعد خليفة لوقت قصـير وانتهى به الأمـر إلى اغتياله، وبقيت قيادته الحافلة بالحكم حول سـلوك الرجال والمجتمع، مثالا للحكومة الكاملة وتحقيقاً للعدالة الإسلامية على الأرض ولو لوقت قصير جداً.

ثم قتل ابنه الحسين مع نفر من أسرته ونفر قليل من أنصاره من قبل جيشـ متفوق جـداً في العدد، وذلك عنـد اقترابه من الكوفـة ملبياً طلب أهلهـا ليكون إماماً لهم ثم تخلوا عنه وخذلوه، وقد وقعت المعركة في مكان يقـال لـه: الطفُّ بكربلاء من أرض العراق عـام 680 ميلادية، وقد غذت خطب الملالي التي لا تنقطع هذه السـيرة، ويستعيد الشيعة كل عام ذكرى مقتل الحسـين في سلسـلة من الاحتفالات تمتد أربعـين يوما من الحزن تتخللها مشاهد تمثيلية واجتماعات جماهيرية كبيرة[3].

يأتـي بعده الإمام الرضـا[4]، وهو الإمام الثامن الـذي مات فجأة بعد

(1) ليس في جوهر الإسلام موروث ظاهر وآخر باطن؛ فحقائق الإسلام كلها معلومة.

(2) هكذا يعتقد الرافضة؛ ولكن الحقيقة أن الخلافة لم تؤخذ منه اغتصاباً، وإنما تمت بإجماع الصحابة ومن بينهم علي رضي الله عنه.

(3) هذه الاحتفالات وما يجري فيها بعيد كل البعد عن الإسلام بل إنها مناقضة لتعاليمه ومحرمة تماماً.

(4) هو الإمام الرضا بن موسى الكاظم 770 - 818م، جعله المأمون وليا لعهده واستدعاه إلى مرو، ثم توفي في طريق عودته مع المأمون إلى بغداد (المترجم).

أن أكل عنباً، وقد صـلّى عليه المأمون ودفنه إلى جانب أبيه الرشيد وأسف عليه أسفاً كثيراً. وجاءت شهرته العظيمة لدى الإيرانيين بسبب موته قرب مشهد (مرو سابقاً) في غرب البلاد. ولهذا فهو الإمام الوحيد الذي يرقد جثمانه في إيران. وله مقام كبير، مؤلف من عناصر عمرانية غريبة ويضم بعض العجائب العمرانية الفارسية.

وهناك الإمام الثاني عشـر، الذي لوحق ككل الأئمة السابقين من قبل الخلفاء، فاختبأ منذ طفولته كي يحمي نفسه منهم، ولأنه نشأ في الخفاء، فقد اختار بعد سـنين عديـدة بعيداً عن عيون النـاس، أن يختفي نهائيا، معلنا عودته في نهاية الزمن كي يقيم العدل والسعادة على الأرض. ونحن نرى في هذا الأمر ظل أسـطورة زرادشـتيه قديمة، أخذتها منها اليهودية ثم المسيحية.

إلى جانب هؤلاء الأئمة الأربعة الأتقياء نضـيف شخصـا خامسا. إنها فاطمة المعصومة أخت الإمام الرضا (الإمام الثامن الذي مات في الثامنة عشـرة من عمره). فبينما كانت فاطمة تتجه نحو مشـهد للانضـمام إلى أخيهـا، هاجمت عصـابة من قطاع الطرق قافلتها بجـوار مدينة قم. وقد استطاعت الإفلات من العصـابة والالتجاء إلى المدينة، ولكن الهزة كانت قوية جداً، لذلك ماتت من الحمى بعد بضعة أيام.

وقـد تحولـت حياتها المتواضـعة القصـيرة، إلى رمز للمـرأة الكاملة، المـبرأة من الدنس على غرار السـيدة العذراء، وقـد قدمت للإيرانيين في المكان الذي دفنت فيه الضريح الثاني الذي يضم شخصاً من آل الرسول، ومـن ثم يُعد مكانـا آخر كبيراً للزيارة. ومدينة «قم» التي تبعد عن طهران مئة وثلاثين كيلومترا وهي إلى جانب ذلك مدينة الجامعات الدينية.

وقد اختار النظام أن يضيف اسماً سادساً إلى القائمة، وهو الإمام الخميني، لقد حاولوا التخطيط لفكرة أنه قد يكون الإمام الغائب نفسه، أو المعلن عن ظهوره، لكن هذا الكلام الذي قيل همسا سرعان ما تلاشى. أما الضريح الذي شيد لرفاته في جنوب طهران إلى جانب الطريق السريع إلى قم، فقد جذب قليلا من الاهتمام وخاصة الاهتمام الحكومي، ففي عام 2006، وبعد ثمانية عشر عاما من وفاته لم يتم إنجاز بناء الضريح، وتشبه القاعة المركزية الكبرى التي تضم الضريح مستودعاً كبيراً أكثر منها قاعة للصلاة، أما بقية المبنى فهو تقليد كئيب للفن الديني الإيراني، وأقرب ما يكون إلى ديزني لاند إسلامي.

ويعوض عن ذلك ملمح واحد: عندما نقترب مساء من طهران وبالتحديد على الطريق السريع المتجه نحو قم والمزدحم دائما بالسيارات والمتعب جداً، يبدو مشهد المنارات الكبرى المضاءة وكأنه انعتاق من وعثاء الطريق، ويغلف الظل بإشفاق قبح الصرح الذي يشكل أحد علائم الطريق أما الليل فيحيطه بنوع ما من الجمال.

وأما مقام مشهد فهو شيء آخر، وعلى الرغم من أنه يكبر بشكل مستمر عن طريق إضافة أبنية حديثة تتطاول على فسحة البازار القديم، الذي هدمه الشاه جزئيا، وهو قلب المكان الذي يشكل مركز شبكة مؤلفة من عشرة ساحات تنتشر على أطرافها صروح تشبه مساجد أصفهان، ويبدأ الوصول إلى الضريح من صالة كبرى ذات أعمدة و طابع تقليدي و جدران وسقوف مغطاة بالكامل بمقطعات من المرايا، وقد دخل هذا النظام العمراني الذي جاء مع القاجاريين كل الأضرحة الكبرى. ويخلق هذا الطراز مناخاً خاصاً جداً حيث تنمحي حدود الواقع، إذ تعكس

كل قطعة صغيرة من المرايا ـ الجواهر الميتافيزيقية عند لايبنتز ـ وحدة العالم الذي يحيط به، ويشعر الناظر أنه دخل إلى نوع من العالم الوسيط بين الأرض والفردوس.

إنما، ليس هذا هو الجوهر. فهذا المكان الذي يفتح مدة 365 يوما و24 ساعة في اليوم الواحد، يستقبل كل سنة ما يقرب من اثني عشر مليونا من الزوار، كما يتفاخر الإيرانيون، وبالتأكيد أكثر مما يستقبل ضريح القديس بطرس في روما الذي يغلق أبوابه بشكل مبتذل بين الساعة العاشرة مساء و السادسة والنصف صباحاً، وفي الحقيقة عندما تدخل الضريح صباحا،أو بعد الظهر أو في قلب الليل ستجد الناس تدخله وبشكل كثيف قادمين وكأنهم المد يرتفع متجها إلى القبر و يتسارع شيئا فشيئا، ويهيج منفعلا ليغمره النحيب كلما ازداد اقترابه من الضريح ثم تمتد الأيدي لتلمس الحاجز الفضي الذي يحيط به ويحول بينه وبين الزائرين، وأخيرا تتمكن الشفاه من الوصول إلى الحاجز فتقبله وتلتصق به الجباه للتبرك بصاحب الضريح ، وتبلله الدموع المنهمرة مدرارا.

وفي الساحات المجاورة سواء كانت مكشوفة أو مغطاة، يكون الجو أكثر هدوءا، فهنا ساحة مخصصة للمرضى الذين نذروا أن يبقوا بضعة أيام، أو بضعة أسابيع، أو الوقت اللازم لشفائهم، مشدودين إلى قبر الإمام بخيوط قنب طويلة مربوطة بأجسامهم كي يصلها تيار بركته، وهناك أشخاص يتجولون، أو يأكلون عائلياً، أو يتوضؤون، أو يصلون، أو يقرؤون النصوص المقدسة التي توضع بسخاء مفرط بتصرفهم في جميع الصالات، وغالبا ما تقدم مقابل مبلغ من المال[1].

(1) كل ما جاء في هذه الصفحة، إنما هو سمة من سمات الشرك في الإسلام، لأن فيه تقديس لأصحاب القبور والتبرك بهم.

وعنــد قراءة هذا الكلام قد يتصــور المرء أنــه أمام ميدان عظيم تجترح فيه المعجزات، لكن الأمر ليس كذلك فكل شيء يتصف هنا بالنظافة المنزهة وفي أدق التفاصيل، وهو في نفس الوقت مكان ساحر يضيف إليك الإحساس بالولوج إلى عالم داخلي فليس هناك أصغر قطعة بلاستيك، أو قصاصة ورق علــى الأرض في الداخل أو الخارج، ولا أثــر لغبار حتى في زوايا الباب، ويعود الفضــل في هذا إلى جيش من خدم الضريح هم أنفسهم في منتهى النظافة، ويرتدون جميعا لباسا موحداً، وهم مجهزون إما بمكنسة أو بمجرفة صغيرة للغبــار لها يد طويلة توفر عليهم مهمة الانحناء وتســمح بالتقاط كمية أكبر، وإما بمكانس يد صينية لها ذراع طويلة في نهايتها خصلة من خيوط النايلون المتعددة الألوان حيث تسمح الكهرباء الساكنة بالتقاط ما تبقى.

إنهــم ـ على الأخص ــ مكلفون بفرض احترام النظام في الداخل، فهم يردعون مثلا العائلات التي يلاحظون أنها ستبقى في المكان لقضاء الليل. وهــم يقومون بهذه المهمــة بأكبر قدر ممكن من الهدوء والملاطفة، حتى لو تعلق الأمر بالمهاجرين من فقراء الأفغان.

ثم لديهم مســؤولية ثقيلة هي الفرز والتصــنيف والحســاب والمقصود الكميــة الضــخمة من القطع النقدية الصــغيرة التي يلقي بهــا الزوار إلى الضريح كهبات، فيحصــونها ويسجلونها في الإيرادات، وتنفذ هذه المهمة في صــالات مخصصة لهذا الغرض، حيث يتربعون في صفوف طويلة أمام أكوام النقود التي يغذيها باستمرار زملاؤهم، إذ يصبون فوقها محتويات أوعية كبيرة مليئة بالقطع النقدية.

ومن المفهوم أن الارتباط بضــريح الرضــا في مشــهد هو شرف عظيم يتوارثه القائمون عليه جيلا بعد جيل من العائلات المتواضــعة الأكثر تديناً

في المدينــة، أمــا الأمــوال التي تجمع فهي ــ ومنذ قرون ـ تعــود إلى أوقاف تديرها المؤسسة الوقفية، وهي المؤسسة الأكثر غنى والأكثر قوة في إيران، وربما كانت الأغنى في العالم كله.

تمتلك هذه «المؤسسة» الأراضي والمساكن ومدينة مشهد التي تضم أكثر من مليون نسمة، كما تتمتع أيضا بامتدادات ضخمة في المحافظة، وأراض واسـعة في كل إيران، ومصــانع وأبنية وشــركات في كل الأمكنة والأصقاع، وحتى خــارج إيران، إنها في الحقيقة لا تعرف ما تملك، وربما لا يعرف أي شـخص معرفة مفصــلة عن فروعها، ولا أحد يشــجع على ذلك فهي غير ملزمة بنشر ميزانيتها، وهي في الوقت نفسه لا تدفع الضرائب.

لقـد تكـون لدينا في مشــهد الانطبــاع الأكــثر اكتمالا في كيفيــة تعامل التراتبية الدينية مع التدين الشــعبي وتأطيره. ونتســاءل بالمناســبة، لماذا يوجد في المذهب الشــيعي طبقة منظمة من رجال الدين، على خلاف بقية العالم الإســلامي؟ وربمــا كان الكونت آرثر دو غوبينو[1]، وهو دبلوماســي عمل في إيران مرتين متواليتين في أواسط القرن التاسع عشر، أول من شرح هذه الظاهرة، نعم إن المقصود هو غوبينو مؤلف كتاب «عدم التساوي بين الأعراق البشرية»، والعقائدي الكريه، والدبلوماسي الشاذ، لكنه في الوقت نفسه كاتب لامع فيما كتبه من أخبار وحكايات في أسفاره العديدة.

إن ما يهمنا هنا، أنه أحب وفهم ووصف بلاد فارس، كما لم يحبها شخص آخر، وقد محضــه الإيرانيون احتراما دائما، لنقل من جهة أخرى إنه رأى عبر منطق أوهامه أن اختلاط الأجناس هو مصدر كل أنواع التأخر، وكان متطرفا في معاداته للاستعمار، لذلك كانت كلماته قاسية جدا ضد مشاريع

(1) الكونت جوزيف آرثر غوبينو 1816-1882 دبلوماسي وكاتب وروائي.

الاختراق الاستعماري، وضد الأوروبيين الباحثين عن الثروة والذين التقى بهم أثناء عمله الدبلوماسي، ومن خلال سلوك متناقض، وفي نقطة واحدة على الأقل كان هذا الرجعي الفظ متقدما على عصره.

وحسب غوبينو، فإن طبقة رجال الدين الزرادشتيين المرتبطين بقوة بسلالة الأباطرة الساسانيين كانت في حوالي القرن السابع الميلادي وفي عشية الفتح العربي تتمتع بميزات كبيرة تسببت ـ إلى حد كبير ـ في إنهاك البلاد، وقد جرى استيعاب الهزيمة بسرعة، فقد حملت معها تصورها لطبيعة العلاقة بينها وبين البنى الفلسفية والروحية التي كانت متطورة جداً في البلاد، و أعطت بعد بضعة قرون هيكليتها الخاصة جدا للمذهب الشيعي، وربما تمكنت أيضاً بهذا التحريف من الاحتفاظ وسط المجتمع الإسلامي الذي اتسع كثيراً، بنوع من الهوية الفارسية التي سترفض بعناد أن تذوب في العالم العربي.

وحتى يومنا هذا، يتعامل المجتمع الإيراني مع الملالي وفق علاقات معقدة. فإذا كان آيات الله العظمى «وهم المرجعيات التي يُقتَدى بها» يتمتعون دائما بإنشاد الناس إليهم وباحترام كبير، ويرتبط بهم الفخر الجمعي، باعتبارهم حماة لمنارات الفكر الإسلامي، فإن الطبقة الدينية الدنيا تقابل بغير ذلك.

إذاً هناك رفض إيراني حقيقي لسيطرة رجال الدين، ولكن هذا لايطفئ التدين العام بين الناس. والعكس هو الصحيح، ويعبر التدين عن نفسه بأشكال مختلفة على هامش تدخل رجال الدين. فهناك مثلاً، القسم الأكبر من الاحتفالات التي تقام في شهر محرم، إحياء لذكرى استشهاد الإمام الحسين، حيث لا نلمح ملالي بين منظمي الاحتفالات، وتقريبا لا

يوجد أحد منهم بين الجماهير، ولو وجد بعضهم فهم في الغالب ملالي بسطاء شدتهم إلى الاحتفال مشاعر طفولتهم في الحي أو القرية.

وفي هذه المناسبات تمسك الجمعيات الدينية، والاتحادان بزمام الأمور، فهي التي تنظم بالتعاون مع ممثلين هواة، العروض التي تحاكي حياة وموت الحسين، وأجمل الصفحات التي كتبت عن هذا الموضوع هي التي تركها لنا غومبينو في كتابه «ثلاث سنوات في آسيا»، الذي يقص فيه أخبار إقامته في فارس، وهذه المؤسسات هي نفسها التي تنظم مواكب حملة السياط.

لقد افتتن الغربيون كثيراً بهؤلاء المرتبطين بالمذهب الشيعي، ولنسارع إلى القول: إنه بعكس ما نرى في العراق أو في المجتمعات الشيعية في الهند، فإن الدم لم يعد يسيل في إيران ومنذ زمن طويل، أثناء هذه الاحتفالات. فقد منع الشاه هذه المبالغات واستمر هذا المنع في عهد الثورة الإسلامية.

ويجلد المشاركون في هذه العروض وبشكل متعاقب الكتفين بمطرقة صغيرة لها نموذج موحد تعرض عند اقتراب شهر محرم في كل محلات بيع لوازم الصلاة وفي المحلات الراقية لبيع الخردوات، ويشعر الناس بالانفعال عند رؤية السلاسل المعدنية مثبتة إلى القبضة الخشبية، إلا أن الخشية منها تتبدد عند استعمالها لأول مرة، إذ من المستحيل أن يصاب المرء بأذى عند استعمال سلاح كهذا، وبالأحرى لا يسمح لأقل نقطة دم أن تسيل، لذلك يجلد حملة السياط ظهورهم بتراخ كاف، وبانتباه أشد لنوعية الإيقاع الجماعي، وبالتالي للصوت الناتج عن قوة الضربات، أما الأطفال منهم فيرتدون وسط خوف أمهاتهم، رداء سميكا.

وتجول المواكب الأكثر نشاطا عشية عاشوراء ويوم عاشوراء بالكامل، لإحياء ذكرى استشهاد الحسين، ولكل حي، ولكل قرية موكبها الخاص،

وأحيانــاً أكــثر من موكــب، ولافتتاح المســيرة يحمل الشــبان الأكثر قوة في نهايــة عصــي غليظــة نوعا من السلســلة المعدنية، ويســير الموكــب أحيانا بعرض الشــارع كله الذي يزين بصــف من ريش النعام وحيوانات رمزية: الطواويس، والوعول، والأسود.

يأتــي خلفهم حشــد جماعة الســياط، يتوســطهم مكبر صــوت متنقل يســتخدمه مرافــق المجموعة كي يــردد ابتهالاته ويحدد الإيقــاع. ويتوقف الموكــب مــراراً، ثم يســتأنف المســير وبالإضــافة إلى اســتعمال المطرقة، يضربون صــدورهم بقبضاتهم وبشــكل إيقاعي. ويرتدي الجميع السواد، ولباســهم بنطال وقميص، وكذلك يفعــل الجمهور. ولا يحظر على الفتيان الذين يســيرون في المواكب أن يفتحوا قمصانهم فتحات عريضة للتظاهر أمام الفتيات.

وأشد ما يكون المشهد ســحراً، عندما يصل الموكب إلى البازار الكبير. فغير بعيد عنه، وبالقرب من أحد المنعطفات الرئيســة في المدينة، تنصــب خيمة ضــخمة تذكرنا بخيمة الشهيد التي أشــعل فيها النار عند ما حانت ســاعة المعركة، وفي الأزقة الضيقة والمغطاة من البازار الذي يقضي إجازة في هذه المناســبة تعرض الاتحادات المختلفة فرقهــا، وتتجه بعد ذلك نحو الزقاق الرئيس الذي صــار أســود مــن تزاحم الناس، وتقــف المجموعات الواحدة بعد الأخرى وتبدأ بإطلاق صــرخاتها يرافقها إيقاع بالأيدي التي تضــرب بشــدة على الصــدور، ثم تنطلق المجموعات الواحدة إثر الأخرى لتشق طريقها بصــعوبة بين الجماهير التي تقاطرت قبل ذلك لتحتشد في هــذا الزقاق الضــيق. وفي جو ضــاغط أكثر فأكثر، مع الأصــوات المرتفعة للسياط، والابتهالات للحسين، وضربات الأيدي على الصدور.

وتصل المسيرة أخيرا إلى الهواء الطلق في شارع عريض اصطبغ بالسواد بسبب آلاف المشاهدين والمجموعات من حملة السياط القادمين من زوايا أخرى من البازار، ونرى هناك بعض الأحصنة والجمال المزينة تذكرنا بالحيوانات التي شاركت في المعركة، وبين هذه الجموع، نرى الكثير من الأطفال الصغار على أكتاف آبائهم أو أقربائهم، وأحيانا الرضع الذين يمثلون - حسب التقاليد - ابن الحسين وهو يرتدي قميصاً أبيض رمز التضحية، وغطاء للرأس وجبهة تحيط بها عصابة خضراء، يتابعون بعيون مفتوحة المشهد. نعم، نحن نعيش فعلا في عالم آخر.

كلمة أخرى حول كل ما يجري في هذا اليوم، فمن البرِّ أن تأكل كل هذه الجموع وتشرب مجانا، وقد تجد في هذه الزاوية من البازار طاولة توضع كل عام على امتداد ما يقرب من قرن، يهيئُها تجار الزقاق كما تشير إلى ذلك صور مصفرة من القدم معلقة على الجوانب.

ويمكن لسكان حي ما أن يضعوا على الرصيف صفا من الحلل الكبيرة أياما عديدة تسبق المناسبة، تليها أكوام من الخشب وقطع كبيرة من اللحم وكميات من البطاطا وأكوام من الخبز تقاس بالأمتار المكعبة، ويقلبون الطعام بالمغرفة في أوان ضخمة، وتغوص المعالق في قصعات بطول طفل في العاشرة من عمره، ويقوم عشرون رجلا بطهي هذه الوجبة التي تذكرنا بوجبات بانتاغرويل[1]، حيث يقف في الصف ألف شخص أو يزيد كل منهم ينتظر دوره بهدوء للحصول على حصته، وحيث يختلط الغني بالفقير، فهذا الغذاء المبارك يهب السعادة لكل من يتذوقه.

---

(1) شخصية في رواية مغامرات للكاتب الفرنسي رابليه (1494-1553) تحمل الاسم نفسه، وتصف الرواية بانتاغرويل أنه كان عظيم الشهية ويتناول وجبات ضخمة.

وقـد تجد هنـاك مجموعة من الشـباب يقدمون الشـاي في أكواب من البلاسـتيك لراكبي السـيارات المتوقفة عند جادة مـا، كما يمكن أن يفعل ذلـك شـخص واحد فقط، مثل ذلـك الرجل العجوز الذي شـاهدناه مرة يقف أمـام البازار الكبير مع دراجة امتلأ صـندوقها الخلفي بعلب التمر، اتخـذ مكانه وسـط سـيل كثيف من البشـر يتدفـق من هنا وهنـاك وكان العجوز يقدم علبة تمر إثر علبة إلى المارة الذين يتناول الواحد منهم حبة او حبتين دون أن يقول كلمة شـكر واحـدة، وعندما فرغت العلبة الأخيرة، وأخـذت آخـر حبة، دفع الرجـل دراجته بخفـة أكبر مغادرا المـكان بقلب مطمئن بسبب إكماله الواجب، هذه هي العقيدة التي يحبونها.

ومن الواضـح أن الإيرانيين يبكون كثيرا في تلك المناسبة، وفي الحقيقة تجري الدموع في إيران كل أيام السـنة، وفي خطب الجمعة مثلا ـ كما قلنا سـابقا ـ إنما أيضـاً في المناسبات العامة والخاصة، وتشـاهد القدرة على البكاء لدى كل الأعمار ولدى الجنسـين أيضـا، وينظر إليها على أنها قيمة إيجابيـة. وتظهـر إحدى الصـور الجدارية العديدة المنتشـرة في طهران، والمكرسة عادة لتكريم الشهداء، والمخصص قسمها الأكبر للأبطال الذين سقطوا في الحرب ضد العراق، تظهر الإمام الخميني مطأطئ الرأس وقد غطـى بمنديله عينـين مليئتين بالدمـوع، وقد جـرت العـادة أن يبكي من يقترب من تحمل مسـؤوليات كبرى في الدولة، وقـد بكى خـامنئي عندما أبلغوه أن يسـتعد لخلافة الخميني في منصـب مرشـد الثـورة، كما بكى خاتمـي علنا عـام 2001 وهو يعلـن قراره بدخوله الانتخابات الرئاسـية لولايتـه الثانية رغما عنه، كذلك فعل، رفسـنجاني حيـث أتاح للناس أن يسـمعوا أنـه ذرف دمعة عام 2005 بسـبب الصـدمة المريرة لاحتمال

أن يتقلد منصب الرئاسة من جديد، ولا بد أنه كان مرتاحاً جدا عندما تجاوزته الرئاسة لصالح أحمدي نجاد.

وترك التاريخ المأساوي للأئمة أثراً كبيراً في بنية هذا الإحساس الجمعي، ولكن هل العكس صحيح؟ وكي نمزج مرة أخرى بين زيارة الأضرحة، والدموع، والإمام، والتدين العام، والاتصال بالجماهير سنتحدث عن قصة عيد سنوي جميل، يسمى عيد غسيل السجادة.

على بعد مئة وخمسين كيلومترا جنوب طهران، يوجد واد صحراوي مهمل محاط بقرية كبيرة هي إمام زادة أي «ابن الإمام»، وتتعلق هذه الكلمة بالسلالات و تشير إلى كل مرقد يضم رفات أحد الأولياء، كبيراً كان أم محليّاً متواضعاً. في هذا المكان ومنذ نحو ألف سنة توفي رجل صالح، هو عم أحد الأئمة الكبار، أو ابن عمه. وبينما كانوا يحملون الجثمان إلى النهر الصغير المجاور ليغسلوه حسب الشريعة الدينية بعد أن لفوه بسجادة، هوجمت الجنازة من قبل جماعة من أعداء المتوفى. وقد حاقت الهزيمة بالفريق المعتدي.

هذه المعركة الكبيرة يعاد تمثيلها كل عام من قبل رجال القرية والقرى المجاورة، الذين يتسلحون بالعصي الطويلة ويخوضون المعركة أمام حشد من ألوف المشاهدين يتوزعون على امتداد السهل، أما من حالفهم الحظ فيجلسون على شرفات ساحتين كبيرتين متتابعتين ضمتا إلى المقام نفسه حيث يحتشد المعسكران المقتتلان ويتألف كل منهما من مئتين أو ثلاث مئة مقاتل.

وبعد الانتهاء من خطبة طويلة تذاع عبر مكبر الصوت تخرج مجموعة من داخل المقام تحمل في وسطها ما يعلن عنه أنها السجادة الأصلية التي كانت تلف الجثمان أثناء المعركة الأولى، وما إن تظهر هذه المجموعة حتى يندفع المعسكر المعادي مشرعا العصي الطويلة، وتتصادم الأسلحة، وعندها تتقدم السجادة وكأنها مركب يخترق العاصفة فتجتاز الساحة الأولى بخطوات طويلة ويشق من يحيط بها طريقهم متراصين وكأنهم خط دفاعي، بسبب ضغط المشاهدين، حتى ليكاد الواحد منهم لا يجد موطئا لقدمه، وفي الساحة الثانية يوجد حوض ماء تدور حوله المعارك من جديد، وهي معارك تذكرنا بمعارك هوميروس، وتقترب السجادة شيئا فشيئا من بوابة الضريح الأخيرة، حيث تبدأ المعركة بالتلاشي، ويتابع حملة السجادة نقلها بشكل احتفالي إلى النهر الذي يبعد نحو كيلومتر واحد لا يصاحبها أثناء ذلك إلا بعض المناوشات البسيطة.

هناك أمران جديران بالاهتمام في هذا الاحتفال: الأول هو مشاهدة دموع المتفرجين الجالسين على الشرفات العائدة للضريح وهي تنهمر على وجناتهم لمجرد ظهور السجادة، وفي كل الأحوال لا توجد امرأة لا تنفجر بالبكاء، أما الملاحظة الثانية، فعلى الرغم من العنف الظاهري للمعركة حيث يحث الموكب الخطى ويتأرجح تحت مظلة من مئات العصي، لا يقع أي حادث، ولا يسقط جريح. طبعا هناك عنف يمارس، أما الهستريا فمسيطر عليها جيداً من قبل اللاعبين والمشاهدين على حد سواء، فالعرض ينفذ بشكل جيد وكأنه مباراة كبرى في كرة القدم.

10

الظمأ للبترول

نعتقد بالتأكيد أن البترول هو الدراما الكبرى لإيران المعاصرة، فبدونه ربما كانت البلاد قد حققت تقدما أكبر، ولولاه ما أضاع الشاه علامات طريقه، ومن دونه لسقط نظام الملالي، وقد شجعت موارد البترول الضخمة مستويات متعددة من سلوك الطفل المدلل.

لنتذكر أنه في إيران لا يدفع أحد الضرائب، وعلى الأقل لا يدفع أحد الضرائب بشكل جدي، وسوف يشعر أي مكلف بالإزعاج عند دفع أي مبلغ كضريبة، وبالتالي فلا أحد يدفع، وهذا صحيح بالنسبة للأشخاص الطبيعيين وكذلك بالنسبة للشركات ذات الشخصية الاعتبارية، وعلى الأخص الشركات الكبرى التي تملكها المؤسسات الدينية، وقد تبنى الرئيس خاتمي قانونا نص على وجوب خضوع هذه المؤسسات للضريبة ما عدا بعض الاستثناءات، وبكل هدوء أصبح الاستثناء هو القاعدة.

ويستفيد الجميع تقريباً من عائدات البترول، فهي لا توفر فقط على الناس عبء تغذية الخزانة العامة، ولكنها تسمح أيضا للخزانة العامة بأن تغذي الناس.

ويتمتع الرغيف بدعم كبير من الدولة، إذ يباع الطحين للمخابز من قبل الدولة ببضع سنتيمات من سعر التكلفة الحقيقي، وبالتالي لا يدفع

المستهلك عمليا إلا أجرة اليد العاملة، وبما أن الخبز يباع بسعر بخس فإن أفقر متسول في الشارع يمد لك يده بتعالٍ ـ فالمتسولون الإيرانيون يتصرفون بشكل عام وكأنهم أمراء ـ يستطيع من أول صدقة يتلقاها مهما كانت قيمتها، أن يوفر خبز يومه.

وأما غير المتسولين، فيشترون خبزهم بالكيلو غرام، دون الأخذ بعين الاعتبار حاجتهم الفعلية من الخبز. وتراهم يتجمعون أمام المخابز، يرقبون العجين يخبز تحت أنظارهم ويستمتعون برائحته المنبعثة من الفرن، وتراهم يغادرون المخبز سعداء بما يحملون من أكوام الخبز الساخن ترافقهم رائحته في سيرهم نحو مقصدهم، وبالطبع، سيؤكل جزء من هذا الخبز بشهية، ولكن جزءاً آخر سيحتفظ به للوجبات الأخرى. أما الجزء الثالث فلتغذية الدواجن في فناء البيت.

كما توزع بطاقات التموين على بعض المواطنين كي يحصلوا بأسعار مخفضة على المواد الضرورية من الدرجة الأولى: الزيت، الأرز، المعلبات والأقمشة، ولا تصرف هذه البطاقات إلا للمواطنين الأشد فقراً، وقد قيل إن مرشد الثورة يهتم شخصياً بحسن استخدامها.

وكذلك الوقود، فهو شبه مجاني، ولنترك القارئ الأوروبي يحلم قليلا: كان ثمن ليتر البنزين في محطات الوقود في إيران عام 2006 ثمانية سنتيمات من اليورو، بينما يكلف الدولة ضعف هذا المبلغ، لأنه ليس لدى إيران القدرة الكافية على التكرير، لذلك هي مضطرة لاستيراد وقود السيارات.

وبوجه الإجمال، تستخدم إيران لاستهلاكها الخاص أكثر من نصف كمية البترول المستخرج من أراضيها، بينما كانت هذه النسبة لا تتجاوز

الربع في زمن الشاه، والسبب أن عدد السكان قد تضاعف، وعدد السيارات تضخم، وستستمر نسبة استهلاك وقود السيارات في التصاعد نظراً لاستمرار نمو المجتمع الإيراني، وهو اليوم قرابة السبعين مليونا، وسيصل إلى قرابة المئة مليون قبل أن يستقر على ذلك، وبينما يزداد عدد السيارات مع ارتفاع مستوى المعيشة فإن القدرة على استخراج النفط تراوح مكانها. والحقيقة أنه ـ ومنذ أيام الشاه ـ لم تتطور القدرة على استخراج وتكرير النفط، ولن تتطور إطلاقا طالما استمرت العقوبات الأمريكية، وقد أخذت صعوبات استخراج النفط تزداد شيئا فشيئا في عدد من الحقول التي وصلت إلى نهاية حياتها.

بالتأكيد، سيبقى هناك موارد نفطية ضخمة، وبالتأكيد أنهم اكتشفوا في غضون ذلك أحواضاً ضخمة للغاز، وبالتأكيد ما زالت الأرض الإيرانية ومياهها الإقليمية تخفي مفاجآت ممتازة، إنما يجب أخيرا على النظام الإيراني أن يفكر في اقتصاديات الطاقة، وأن يجهز البلاد للطاقة البديلة إذا لم يشأ أن يحكم عليها بعد بضعة أجيال بالفقر كما كانت في السابق، وليس لديها سوى العيون لتبكي بها.

والحالة هذه، لابد من التنبيه إلى البون الشاسع، بين تحقق الوعي في استخدام الطاقة وبين وضع هذا الوعي موضع التطبيق، وتحاول الحكومة منذ سنوات نشر ثقافة اقتصاديات الطاقة في المجتمع الإيراني.

وسيكون الإجراء الأكثر بساطة هو في مضاعفة أسعار الوقود مرتين أو ثلاث مرات. وقد حدث في الماضي أن رئيس وزراء الشاه اغتيل في سنوات الخمسينيات، تماما بعد قيامه برفع أسعار وقود السيارات. وبقي الحدث

حيا في الذاكرة ليدفع إلى التفكير مليًّا قبل تكرار التجربة، أما الطريق الثاني فهو تحديث مجموع السيارات التي يتألف القسم الأكبر منها من طراز متخلف، هو البيكان الذي يستهلك بشراهة ليتراته الخمسة عشر أو العشرين في مسافة مئة كيلو متر فقط، وقد تعاقدوا حديثا مع مصنعي البيجو والرينو للسيارات، ولكنه لا ينتظر ظهور النتائج قبل عشر سنوات.

فكرة أخرى يجب أن تطبق وهي ترشيد استهلاك البنزين المدعوم وبيعه بأسعار أعلى عندما يتجاوز المستهلك حصصاً معينة ثابتة، إنهم يتحدثون عن هذا الأمر كثيراً، ولكن المشروع لم ينفذ حتى هذا اليوم.

ومن الحقيقي أنه قد تنشأ مشكلات فنية خطيرة كي نأمن عدم التلاعب، ناهيك عن السخط الذي ينتظر المبررات كي يزداد فيما إذا كانت الحصص أقل قليلا عن اللازم، ولابد هنا من التنويه إلى أن الرئيس أحمدي نجاد الضنين ببذل الوعود، قد وعد مع ذلك وخلال حملته الانتخابية بعدم رفع أسعار الوقود، كما أنه لم تتخذ أي إجراءات أمان لفتحات خراطيم المضخات، وما زلنا نرى سائقي السيارات ينتظرون طويلا كل مرة يسعون فيها إلى ملء خزانات سياراتهم، ومن ثم يتركون بابتهاج ما يزيد عن نصف ليتر من هذا السائل غير الثمين بالنسبة لهم، ينسال من خزان السيارة نحو الأرض.

وكذلك يمكننا أن نشاهد وبشكل متكرر وخلال حقب طويلة عمليات تهريب مربحة وهي تصدير البنزين المدعوم إلى البلاد المجاورة الفقيرة بالبترول، وبشكل خاص تركيا وأفغانستان، وفوق ذلك باكستان حيث يباع

الوقود فيها بأضعاف سعره في إيران، ويقولون هنا إن عشرة بالمئة من الوقود المستهلك في إيران يجري تهريبها إلى الدول المجاورة.

وأخيرا، نحن نعرف أن النظام منذ مدة طويلة جدا، وعن طريق نظام مضاعفة أسعار صرف العملات الأجنبية، يسمح لمؤسسات معينة يرغب بدعمها أن تستورد معدات أو بضائع، بأسعار صرف لا يمكن منافستها. ونحن نعلم أيضا أنه يقوم بعمليات دعم مباشر لمشروعات معينة ومقاولين يحصلون على رضاه، مستخدما وارداته البترولية. لقد أصبح معروفا أن البلاد قد نظمت على شكل شبكة واسعة من المتعاملين مع النظام.

وتتجه المشروعات التي تعتمد على مؤسسات دينية، نحو السيطرة على رجال الإدارة وكبار الموظفين، وشبكات الباسدران التي تختلط بالشخصيات الرئيسة وتنفذ إلى جميع النشاطات المربحة في البلاد، والقريبة من الطبقة العليا الدينية أو السياسية التي تتقاطع في كل الاتجاهات من خلال الزواجات المرتبة، وبالتأكيد سينتهي الأمر بكل رجل منهم وكل امرأة وبعد شيء من البلبلة إلى العيش على المن والسلوى. وكما قال لي دبلوماسي صديق: «في إيران، أولئك الذين يقودون البلاد يملكونها أيضاً».

ويتلقى الناس البسطاء، كما رأينا، جزءاً أيضاً من هبة السماء هذه. أما الصلة بين الدولة والمواطنين التي نعرفها في البلدان الأكثر تطوراً، فنجدها هنا مقلوبة تماماً، فعندما يدفع المواطنون ما بين 30 إلى 50% من دخلهم للدولة، فإن معهم بعض الحق في التفكير والقول، فيما إذا كان لدى الحكام حسابات الخاصة. أما في إيران، فالأمر على النقيض تماماً،

فعندما تسيل نقود البترول، وبالتأكيد بطريقة غير شرعية، فإنها لا تنسى أحداً، وليس لأحد مصلحة في أن يلاحظ ذلك.

إذاً ينقص المجتمع الإيراني الإسمنت الاجتماعي الذي يؤسس لدور الدولة والمؤسسات الجمعية ويحمل لهذا المجتمع اللحمة على مر الأيام. وبسبب نقص هذا الملاط يبدو للمراقب أن هذا المجتمع عالم ضعيف البنيان، لا يسعى أعضاؤه إلا إلى مصالحهم الخاصة، حيث يسود بشكل مطلق نوع من الفوضى المحافظة.

ومن المفهوم أنه من السهل جداً الحكم بأنه سيتشكل أي نوع من السخط العام الناتج مثلاً عن ارتفاع مهم في أسعار المحروقات، أو أن تتضافر مظاهر سخط خاصة متعددة. وبمواجهة هذه الأخطار تصرف النظام بمهارة وذكاء متميزين.

ومن المتفق عليه أنه ليس في إيران أحزاب ولا نقابات تستحق هذا الاسم. فالنقابات هي نقابات صفراء ، والأحزاب السياسية هي مجموعات متواضعة، وهذا هو أحد أسباب فشل الإصلاحيين الذين لم يستطيعوا أبدا - هذا إذا سلمنا أنهم حاولوا في الأصل بشكل جدي - أن يبلوروا من خلال حركة جماهيرية الدعم الشعبي لمحمد خاتمي، وبشكل مماثل لم يوجد حزب حكومي يستطيع ان يكون معادلا للأحزاب الشيوعية، ولم تكن الأغلبية البرلمانية المحافظة التي امتلكت في ذلك الوقت القوة إلا صيغة مبهمة عن العشائرية، وعن تحالفات طارئة مؤقتة، أما المنظمات والجمعيات غير الحكومية فهي في النهاية هياكل صغيرة جداً إن لم تكن شهود زور لدى الحكومة.

أمـا النظـام الذي كان يـدرك عدم شـعبيته فقد نظم بالتالي نفسـه. ولهذا كان من الصـعب تجاهل ذلك فيما لو اسـتمعنا إلى الناس يتحدثون في سـيارات النقل العامة، أو في اللقاءات الخاصـة التي قد تحدث صدفةً. وقد رأيت وسـمعت زبونا في محل لبيع القمصـان يعبر لي عن غضـبه من «واضـعي العمائم» دون أن أسأله عن رأيه، وقد أضاف إلى قوله حركةً جر فيها طرف كفه على رقبته، لا، هذا لا يشـير ـ كما اعتقدت في البداية ـ أنه يحلـم بقطع رقابهم، بل أراد ببسـاطة أن يقول إن روح الناس من الضـيق بلغت الحلقوم.

أما ما يتعلق بالسلطة، فلكي تحصل على درجة حرارة الرأي العام تلجأ إلى إداة لا مثيل لها وأفضـل بكثير من كل استطلاعاتنا العامة، إنها شبكة مؤلفـة من ثلاث مئة ألف رجل مـن الملالي تغطي البلاد بأكملها، بالتأكيد هذه الشبكة غير موجودة في شمال طهران حيث يزدهر «المجتمع المدني»، لكنه يعاني ضـعفاً شـديداً يمنعه من أن يشـكل تهديدا للنظام، وفيما عدا ذلك فالشـبكة موجودة في كل مكان، في الأحياء الشعبية في العاصمة، وفي كل المدن، وفي كل القرى.

تـدور المعلومات داخل هذه الشـبكة بشـكل دائـم وفي كل الاتجاهات. ويتلقـى خطباء الجمعة المعينين في كل مدينة وكل قرية من قبل السـلطة، تعليمات لتوجيه خطبهم ولنقل ما يسمعون حولهم وما يمكن أن يستنتجوه إلى القمة في قلب النظام. وكان الشاه يعتقد بأن الشعب يحبه لأنهم كانوا يدفعون إليه بفلاحين يقبلون يده، ولكن الغشـاوة أعمت بصره حتى وقت متأخـر جداً، ولا نجد شـيئاً من ذلك لدى الملالي الذيـن يبقون دائماً في منتهى اليقظة.

وفي عـام 2000، وبعد وصـولي إلى إيران بقليل، توجه ما بين عشـرين إلى ثلاثـين ألف مدرس إلى طهران، وخـلال يومين أو ثلاثة جرت معارك غير منتظرة أمام البرلمان، الذي تلقت واجهته الأمامية سيلا من رشقات الحجارة، ولا بد من القول: إن القسـم الأكبر منهم لم يتلق رواتبه لشـهور عدة، وحتى لـو دفعت لهم رواتبهم فليس هذا بالراتب اللائق بمدرس فهو يبدأ بثلاثين يورو في الشهر، وشعرنا أننا أمام جو يسبق التمرد، وبعد ذلك هدأ كل شيء، واختفى الموضوع من صحف اليوم التالي، ثم علمنا أنه جرى تطويق دعوة جديدة وتصعيد للإضراب، لقد فعلت حنفية النفط فعلها.

ولقد رأيت صنبور النفط يعمل مرة أخرى، بعد تلك المدة بكثير وتقريبا بنفس الطريقة الأولى، وتعلق الأمر هذه المرة بعمال النسـيج الذين بدؤوا بإقامـة الحواجز على الطرقـات، ويبدو أن الأمر تكرر حديثا مع سـائقي السـيارات الكبيرة في طهران الذين اتجهوا نحو إضراب عنيف، وقد تمت إعادتهم إلى الهدوء بعد بضعة أيام.

أمـا ثورات الطلبة، فالأمور كانت أكثر تعقيداً، لأن الأمر لم يكن يتعلق بالنقـود، ففيمـا يتعلق بالتمـرد الأول عـام 1999 ظهـر أن النظام تأخر قليـلا عن الرد، فقد تحرك دافعاً بقوى عاتيـة لمواجهة الطلبة، ثم عاقب المتمردين بقسوة،ثم أوحى أنه إذا تطلب الأمر فسيلجأ إلى أشد الأساليب قسـوة، ثم اكتشـف أن خيـاره هـذا كان سـيئا وإن كان ضـرورياً؛ لذلك كانت مواجهـة أعمال التمرد التي أعقبت ذلك أكثر تنظيما فاقتصـر في المواجهات على تكليف الشـرطة بمهمـة التدخل بطريقة أكثر لينا لمعالجة المظاهرات التي كانت تضـم بضعة آلاف من الشبان، ثم ليقوم بعد انتهاء الأحداث بفعل كل شيء لإخضاع وسجن وإرهاب وطرد كل المتمردين من

الجامعة، أما خارج الحدود، فقد أعلن الكثيرون أن الجمهورية الإسلامية تتفكك، وكان ذلك تحت تأثير الأمنيات، إنما كان بالإمكان أن تتفكك فعلا لو أن مجتمع طهران المتعاطف مع قضية الطلبة قد خرج إلى شرفات المنازل كي يطلق ومن دون مخاطرة تذكر بعض الهتافات العالية، ولكن شيئا من هذا لم يحدث.

في العمق، تنطلق الثورات عندما، يشعر العمال والطلاب والمدنيون و المتقاعدون أو المزارعون جميعا وفي نفس اللحظة أن لديهم دوافع للشعور بالسخط، وقد عرف النظام جيدا هذه الحقيقة لأنه بهذه الطريقة نفسها وصل إلى السلطة، لذلك فقد اهتم جيداً بإطفاء كل شرارة أولى يمكن أن تنتشر في محيطها، وتلتقي بأماكن اشتعال أخرى فتشعل النار في المجتمع كله. وعلينا الاعتراف أنها نجحت بقوة حتى الآن.

كما لعب أيضاً لمصلحة النظام ذلك الخوف الذي عاشه أولئك الذين عاشوا بدايات الثورة ناهيك عن الشبان الأكثر حداثة الذين سمعوا الروايات المرعبة والذين خافوا الدخول في حلقة جديدة وأعمال العنف. «كيف استطاع هذا الجيل أن ينتج مثل هذه الفظائع؟»، «لن نسمح أن يتكرر هذا». هذه هي الأفكار التي كانت تصاغ بدقة في تفكيرهم. وهكذا بدا واضحا أن النظام لن يسقط من تلقاء نفسه وأنه في حال بدئه بالتآكل من الداخل فسيكون جاهزاً عندما يحين الوقت أن يجعل معارضيه يدفعون ثمنا غاليا لسقوطه. و كان ما يردده رجال الباسداران بشكل محبب لمن يريد أن يسمعهم، أكثر قوة من الثورات الطلابية ،من أنهم بعكس المعارضين الذين يواجهونهم، لا يخشون الشهادة، أي الموت في سبيل القضية.

وسـيكون ذلك حقيقيا أيضاً، على الأقل إذا صدقنا ذلك، في حال وقوع عـدوان خارجـي. وقد ذكـرني أحدهم وهو في حـال من الانفعـال بأغنية شـعبية انتشـرت في نهاية الحرب مع العـراق تقول لازمتهـا: «الآن انتهت الحرب وانقطع طريق الجنة».

وخلال كل هذه الأحداث تسـتمر الحياة، فهل هذا مؤلم جدا أن تسـير الأمـور على هذا الشـكل؟ لقد قلت يوما لأحدهم إنه لا بد أن يكون تعيسـا جدا في هذه البلاد، وبعد لحظة صمت طويلة أجابني بصوت رقيق: «لا يا سـيدي، لا تخدع نفسـك، في إيران يسـتطيع المرء أن يعيش، وحتى في هذه الأيام، حياة وادعة بما يكفي... إذا لم يكن لديه طموحات كبيرة».



11

قلب تحت الحجاب

آه، من الحجاب الإسلامي في إيران، إنه الموضوع الأبدي للحوار والتفكير... وكنت أرى بشكل متكرر في احتفالات السفارة، الطريقة التي تتخلص فيها الشابات الإيرانيات منه، كي يكشفن عن ملابسهن ومفاتن الجمال لديهن، كأنهن فراشات تخرج من شرنقاتها، كان يراودني عندها ـ لأعترف بذلك ـ فكرة آثمة، وغير صحيحة سياسيا ألفاً بالمئة، وهي أنه يمكن للمرء أن يكون ضد الحجاب في العالم كله ما عدا إيران، وفي الحقيقة لو حدث ذات صباح جميل أن خرجت جميع الإيرانيات فجأة إلى الشارع سافرات، فلن يعارض المجتمع في ذلك، إنما سيتحول كل رجل إلى ذئب يقف قبالة رجل أو ذئب آخر، وستعم الفوضى، وتتراجع الحضارة في هذا البلد آلاف السنين.

كلا، فليطمئن القارىء، ولتطمئن ـ أكثر ـ القارئة، فأنا لم أورد هذه الفكرة إلا كإشارة إلى خاطىء مسكين قد تقترب فكرته من فكرة كتاب الآيات الشيطانية التي كان فيها مساس بالرسول (صلاة الله وسلامه عليه وعلى آله وذريته كما يدعو المسلمون).

نعم! إن فرض ارتداء الحجاب الذي جرى في خطوات متتالية صغيرة في بداية الجمهورية الإسلامية، قد شكل رمزاً جيداً بأن الجميع في إيران، وفي الخارج يعبرون عن الطاعة والنظام اللذين رسمهما آية الله الخميني

للإيرانيين، وكان الخميني قد أجاب ـ عندما كان في نوفيل دوشاتو ـ عن سؤال لأحد الصحفيين: أي مكان ستهيئون للنساء اللاتي يناضلن الآن هناك في إيران من أجلكم؟. فقال: هذا حقيقي، إنهن يقاتلن كالأسود، وستجعل لهم الثورة الإيرانية المكان الذي يستأهلنه، وكل الفسحة التي حفظها الإسلام لهن.

ولا بد ان نقف عند هذا الكلام بحذر، كان عام 1961 هو الزمن الذي بدأت تتكون فيه قوته وبروزه في المشهد العام، وكان ذلك بسبب معارضته منح المرأة حق التصويت في الانتخابات العامة، وفيما بعد، أثار أسلوبه الثوري غالبية رجال الدين الشيعة وجميع آيات الله الكبار الذين كانوا يميلون إلى الهدوء، ودفعهم إلى الابتعاد عنه. كان الموقف الموحد في تنحية موضوع المرأة جانباً يوجد ـ دوما ـ أرضية مريحة للتوافق بين الجميع.

ولإكمال الصورة من المناسب التذكير أنه قبيل الثورة، كانت أقلية صغيرة من النساء الإيرانيات قد استثنين أنفسهن من ارتداء الحجاب. ولم يكن من الملائم لهن أن يتجولن سافرات في الأحياء الشعبية، والأسواق. وفي مرحلة الاضطرابات التي تفاقمت مع سقوط الشاه تبنى قسم من النساء المعطف الواسع المسمى بالفارسية «الروبوش» ومنديل الرأس «الإشارب» كإشارة لرفض النظام الإمبراطوري، وبهذا النوع من اللباس الموحد المختلف بشكل جذري عن الشادور التقليدي ذي القطعة الواحدة، خرجت النساء في مظاهرات تلك الحقبة.

عندما نشبت الثورة الإسلامية، لم يصدر أي قانون سريع لفرض الحجاب. وقد قدم الحجاب أولا على أنه سلوك طوعي إشارة إلى احترام

كل امـرأة محجبة للنظام الجديد، ثم فرض ارتداؤه على الموظفات، بما فيهن القطاع المهم من المدرسات، وقد جرى ذلك في إطار حملات من التخويف قادها الباسيج ضد آخر المتمردات. وقد تداول الناس في حينه أحاديث عن قذف السافرات بالأسيد الحارق أو تثبيت الحجاب قسرا فوق رؤوسهن بالدبابيس الغليظة.

وليست هذه هي المرة الأولى التي تتداخل فيها مسألة الحجاب بالسياسة، وبوحشية أحيانا. فقد أصدر رضا شاه الذي أراد أن يقلد أتاتورك، مرسوما عام 1935 حرم فيه ارتداء الشادور، وحاول تطبيقه بقوة الحراب، وبعد ست سنوات تقريبا، أي في عام 1941، اعتقد الإنكليز والأمريكيون والروس أن الشاه يؤيد الألمان، وخشوا أن يفتح أبواب بلاده لقوات المحور، فدفعوه للتنازل عن العرش والتوجه للمنفى، وأدى رحيله إلى عودة فورية للحجاب الذي كان قرار منعه قد استقبل بعدم الرضى من المجتمع الإيراني، معتبرا المنع ردة دينية، كما أدى في نفس الوقت إلى إغلاق العديد من مدارس الإناث، وبعد رحيل الشاه، أصبحت حرية اختيار الحجاب أو عدمه هي القاعدة الأساسية، واستمر ذلك حتى عام 1979.

وارتداء الحجاب الإيراني تقليد يغوص في أعماق التقاليد الإيرانية، وربما أكثر من أي بلد إسلامي آخر، ويقال: إن الحجاب الإيراني انطلق من الأراضي الإيرانية باتجاه البلدان العربية، وليس من البلدان العربية باتجاه إيران.

وبالمقابل فقد ثبت أن الحجاب «تغطية الرأس» يعود تاريخيا في إيران وفي بلاد ما بين النهرين إلى أزمان سحيقة قبل الإسلام، وقد أشار الملك البابلي حمورابي قبل ألفي عام من ولادة المسيح إلى الحجاب في أول قانون مدني وضع في التاريخ، فقد طلب أن ينقش على لوح حجري قرار منع النساء سيئات السمعة من تغطية رؤوسهن، وهذا يعني أنه يمنعهن من التشبه بالنساء الفاضلات، وفي السابق بدا الحجاب وكأنه أداة للتمايز الاجتماعي، وقدر غوبينو بدوره، أنه كان منتشرا في عصر الساسانيين، ـ أي قبل الفتح العربي ـ في الطبقات المختلفة في كل المجتمع الفارسي عن طريق تقليد زوجات الشخصيات الكبيرة ومحظياتهم باعتبارهن شخصيات سامية يجب أن تحتجب عن أنظار العامة، كما كان ينظر إلى المرأة المحجبة على أنها من طبقة متميزة.

واليوم يتعارض الشادور ـ وهو قطعة واحدة تغطي الرأس والجسد معاً ـ مع اللباس الذي ترتديه الفلاحات الإيرانيات اللاتي يرتدين «التنورة» وغطاء الرأس، إذ يستحيل مع الشادور أن يقمن بأي عمل جسدي متواصل، لأنه غير مريح في العمل إلى حد بعيد، فإذا رأينا ونحن نمر بقرية ما أو عبر الحقول امرأة ترتدي الشادور، فإنها بالضرورة زوجة موظف البريد أو المدرس أو المسؤول عن المستوصف، وبالتالي فهي مدنية، أو على الأقل امرأة تأمل أن تصبح من نساء المدن.

وبالعودة إلى السياسة، نقول أيضاً: إنه إذا اعتقد الخميني أن باستطاعته إخضاع المرأة الإيرانية بفرض الحجاب عليها، فقد نجح في ذلك بشكل كامل.

ومما لاجدال فيه ـ ولو بدا ذلك متناقضا ـ أن الحجاب في البداية لقي قبولا لدى الفتيات الجامعيات، فقد كن ـ زمن الشاه ـ قد منعن من دخول الجامعة محجبات، وقدرت الكثير من العائلات المحافظة، ودفعة واحدة، أنها لا تتصور أن ترسل بناتها إلى هذه الأماكن الضالة ليختلطن دون قيود مع الطلبة الذكور، وعندما جاءت الثورة وفرض الحجاب في الجامعات وجرى في الوقت نفسه فصل الطلاب عن الطالبات في أروقة الجامعة لم يعد هناك ما يدعو أي عائلة لحرمان بناتها من التعليم العالي، وفي الحقيقة نجد أن 60% من الطلبة اليوم من الإناث. ولحسن الحظ، لقد أصبحت الجامعة، بالحجاب أو من دونه مكانا لممارسة العواطف.

وظهر الفصل من جديد بعد انتهاء الدراسة، وما زال من غير المحتمل اليوم أن تحتل امرأة وظائف ذات مسؤولية كبيرة في الإدارات العامة أو المؤسسات الكبرى التي تسيطر الدولة على قسمها الأعظم، لذلك تلجأ الفتيات إلى ميادين العلوم والفنون والمهن الحرة والتعليم حيث يحصلن باستمرار على مواقع قيادية، ولكن القسم الأكبر منهن، في الحقيقة، ينصرفن إلى البحث عن زوج، لذا نجد هناك الكثير من الزواجات الفاشلة لدى الفتيات اللاتي تفرض عليهن العائلة زوجا ليس أهلا للفتاة، ولهذا السبب ولأسباب أخرى، ارتفعت معدلات الطلاق إلى درجة كبيرة، وفي كل الأحوال فإن هذا المعدل يصل في المدن الكبرى إلى مستوى معدلات الطلاق في الغرب، وفي طهران نفسها فإن زواجاً من كل أربع زواجات ينتهي بالتصدع، وهذا ما نراه منذ عشر سنوات على الأقل.

ولكن الإيرانيات يعرفن أن ساعتهن قادمة، فإذا أرادت إيران أن تصبح دولة عصرية كبرى، فإنها بحاجة أكيدة إلى طاقات نسائها. ونتيجة لما هي

عليـه اليوم ـ هموم الحياة اليومية، والشـك في المسـتقبل الذي يسـتدعيه النظام الأخلاقي للنظام ـ ضـربت إيران رقما قياسـيا، وربما كانت البلد الأول في حجـم هجرة العقول، وكذلك في تعاطي المخدرات لدى الشـباب، لكن هذه قصة أخرى. إذاً نحن أمام هجرة للعقول الذكور. وطالما أن الأمر يتعلق بمستقبل الأولاد الذكور، فإن العائلات تستنزف ـ إذا لزم الأمر ـ دم قلبهـا في سـبيل متابعة تعليم أبنائها. وإذا اسـتمر «الخروج» بهذا المعدل، يصبح لدى النساء فرصا طيبة لاحتلال المناصب القيادية، وبشكل خاص في الإدارات العامة وبرواتب مغرية كما في أي مكان آخر.

وبالتنبؤ باللحظة التي سـتحتل فيها النسـاء الإيرانيـات مكانهن ـ بعد فـترة بعيدة، والمفترض أن يهيئه لهن آيـة الله الطيب ـ فلن نسـتطيع أن نصـف أبدا الفخر الذي أحسسـن بـه جميعا بما في ذلك النسـاء في قلب النظام، بمنح جائزة نوبل للسـلام إلى شـيرين عبـادي، وعندما عُلم أنها ستصـل إلى طهران بالطائرة في السـاعة العاشرة مساء قام حشد ما بين عشـرة إلى خمسة عشـر ألف شـخص معظمهم من النساء، مع عدد غير قليل من الرجال، بقطع عدة كيلومترات سيْراً على الأقدام، متوجهين نحو المطار. وقد مرت الكلمات همساً بأن يرتدي المستقبلون والمستقبلات الملابس البيضاء إشارة للحرية، ولمرحلة جديدة، وللتخلي عن سواد الشادور.

وهناك، في المطار لم يكن ثمة تردد للشرطة في تفريق الحشد بوحشية، تماما كما تفعل ـ ولا فخر ـ كلما حلّ يوم المرأة العالمي، حيث تحاول بضـع مئات من المتظاهرات أن يتجمعن في إحدى حدائق طهران، وكانت الشرطة سـعيدة هذه المرة أن تبقي حتى اللحظة الأخيرة الشك حول الطريق الذي ستسـلكه شيرين عبادي تاركة بذلك موجات من الأشخاص يجرون في كل

اتجاه في المطار، ومن المفهوم أن يفض أي استقبال صاخب للبطلة القادمة. والذي حدث أن أحداً ـ أو تقريبا لا أحد ـ سمع خطابها عند وصولها، وكان على النظام أن يعمل أكثر من ذلك لمحو نشوة الفرح للتقدير الذي نالته.

ومن الحقيقي أن اختيار المحلفين في أوسلو وقع على امرأة استثنائية. وهي امرأة صغيرة الحجم، منتصبة القامة، ولها جسد مكتنز العضلات، لها وجه مدور ومصقول، وعين ضاحكة وابتسامة عريضة، ولعل الصفة التي تناسبها أنها امرأة «لا تقبل الخضوع». وقد رفضت هذه المرأة ـ التي تحمل قضية معينة، وبعد حصولها على الجائزة ـ وبإصرار كل العروض التي قدمت لها لدخول عالم السياسة العريض لأنها تكرس نفسها لقضية معينة، وتتابع الآن كما في السابق عددا من القضايا الإنسانية المهمة جداً والتي تتعلق بأطفال الشوارع، وبضحايا الألغام في المناطق الحدودية مع العراق. كما تتابع على الأخص العمل مع مجموعة من زملائها المحامين، للدفاع عن زبائنها من أصحاب القضايا المبدئية و مناصرة قضاياهم: الحقوق السياسية، حق الدفاع، حقوق الإنسان (بما فيها حقوق المرأة). وعندما حسمت أمرها واختارت طريقها، لم تغادره أبدا وأرست أسس ملفات صلبة في الميدان القضائي.

ربما كان شعارها «القانون، كل القانون، ولا شيء غير القانون»، وإذا كان القانون سيئا فيجب مناقشته بشكل علني بهدف تبديله، لكن بالطرق الدستورية، ودون أن نضع النظام موضع المساءلة، لا شيء يفت من عضدها، لاشيء يخيفها. وقد حرك النظام ملاحقات ضدها بسبب بعض نشاطاتها وبدوافع غامضة. و قضت بعض الفترات في السجن، فكانت أقل الناس تأثراً بذلك، وقد تبددت كل هذه المضايقات بشكل يدعو للشفقة على مرتكبيها.

يجب أن نرى ما هي الشروط التي تعمل بها.. فمكتبها موجود في البناء نفسه الذي تقع فيه شقتها ويضم غرفتين أو ثلاث غرف في نصف قبو. في إحدى الغرفتين طاولة اجتماعات وبعض المقاعد التي لا طعم لها، كما نجد فيها علبة بسكويت وطقم فناجين شاي صغير للزوار حيث تقوم هي شخصيا بواجب تقديم الضيافة لهم، تضم الغرفة الثانية مكتبا أكل الدهر عليه وشرب، وجهاز هاتف قديم، وجهاز كمبيوتر من طراز التسعينيات، في هذه الغرفة تجهز المرافعات والدعاوى التي تسبب المصاعب للنظام، وهي تعرف أنها تعيش تهديدا دائما بالتصفية الجسدية، بإشارة يعطيها مجنون أو بيد مدفوعة من جهة ما، ولكنها مع ذلك أقل الناس تأثراً بمثل هذا التهديد.

ولأن هذه السيدة ليست قاضية، ولا عاملة في الميدان الثقافي، ولا في ميدان العلوم وليست فنانة، بل هي امرأة عادية، لذلك عليها أن تقبل المكان الذي حجزه لها النظام، ولكن هل تقبل هي بذلك؟.

في البداية قاتلت المرأة من أجل التعبير العام عن نسويتها، وسبب هذا أن ما يعتبر في أماكن أخرى من أمور الموضة الصغيرة، يأخذ في إيران بعدا في المراوغة السياسية.

إنها مراوغة سياسية أن قامت الفتيات الشابات بتقصير معطف (الروبوش) إلى خط الركبة، حيث شوهد هذا حتى في الأحياء الشعبية، مع أن معايير النظام أن يصل الطول حتى منتصف ربلة الساق، إنها مراوغة سياسية، أن ترتدي الفتيات «البيمبو الإسلامي» يتجولن به في شوارع شمال طهران: حذاء عالي الكعب يسبب الدوار، بنطال من الجينز

مـع قميصـ ذي طيـات، روبوش قصـير جداً بثـلاث قصـات مختلفة، وقميصـ وردي فـاتح، أو أخضـر بلـون النعنـاع، أو أزرق بلـون الخزامى يضـيق في الأسـفل كأنه من قماش السـترتش فيقولب الجسـد ويبالغ في إبـراز الردفـين، وغطاء رأس صـغير يسـمح بانفلات خُصَـل كبيرة من الشـعر الداكن اللون، و«ماكياج» متعدد الألوان مرسوم بشفافية، وأظفار مطلية بعناية في القدمين كما في اليدين، ونظارات شمسـية، وقطعة لبان «تطقطق» في الفم توحي بالتحدي.

إنهـا مراوغـة سياسـية، أن ترتـدي الفتيات الشـابات واقيـات الوجه الواسـعة للاعبات الجولف أو التنس وخاصة في الصيف، وقد استخدمتها المتنزهات من مختلف الأعمار وحتى داخل المدينة.

إنها مراوغة سياسـية أيضـاً، وأخـيراً، هذا الانقياد الكاذب للنسـاء المرتبطـات بالحيـاة العامـة واللاتـي يتمتعـن بثقـة شخصـية بالنفس، إذ تسـتخدم الكثـير منهن هذا الإشـارب أو حتى الحجـاب المتدلي على الكتفـين، في المكاتب وفي الجامعة لأنه سـيبقى في مكانـه طول النهار كي يرسـم بدقة اسـتدارة الوجه دون أن ينتهك معايير الحشـمة الإسلامية، ونادرا ما يكشفن طرفا من شعرهن، كما أن الجسد لا يترك مجالا لمعرفة تفاصيله إلا إذا أطلقنا المجال للخيال، أما الأجزاء الظاهرة للعيان، أعني بها الوجه واليدين، ثم القدمين، تمضي هذه النسوة وقتا طويلا في فصل الصـيف خاصـة، للعناية بها بشـكل خاص في جلسـات تدليـك الأظفار، الحاجبين، الرموش، الجبهة، الأنف، الوجنتين، خط الشـفتين، ووضـاءة البشرة، كل ذلك يصبح موضوعاً يحتل المركز الأول في التفكير، وإذا لزم

الأمـر لا مانع من إجراء عملية تجميل، كل ذلك لجعل كل هذه التفاصـيل عملاً فنياً.

إذاً لم يمـت تحت الإثـارة في إيران، وحتى إنه ـ كما تقول الفحوصـات الدماغية ـ أصبح أكثر تأججاً باعتباره أصبح يواجه ضغطاً أكبر، لقد ظهر من شهادات لشبان جمعها علماء اجتماع ـ وهذا متوقع ـ أن الشادور نفسه قد انتهى به الأمر ليصبح أداة إثارة وتغذية للمخيلة، ومثلما تفعل عندنا ـ في الغرب ـ حاملات الجوارب النسـائية (الجرتيير). إنه مجرد استبدال للأشياء.

ومـا يدعو للكثـير من الاسـتغراب، أن لعبة القـط والفأر التـي تلعبها النسـاء مع المعايير الإسـلامية مـا زالت تمارس في عهـد الرئيس أحمدي نجاد، ويتردد المحافظون المتطرفون بشكل ظاهر، رغم سيل البيانات التي تصـدر للتأكيد على القيم، أن يصـلوا ـــ عكس ما يريدون ـــ إلى إحداث شروخ مهمة في المجتمع، وبشكل خاص مع الأجيال الشابة، لكن الجمهورية الإسلامية لا تستسلم.

هنـاك أولا، التأهيـل والتكييـف اللذان يمارسـان في دور الحضـانة، والمدارس الابتدائية، ويذهب الذكور والإناث إلى مدارس منفصـلة، وفي كل مـكان تلتزم الفتيات باللباس الموحد، وهو غالبا بلون أزرق سـماوي ويتألـف مـن غطـاء الرأس المتـدلي على الكتفـين والقميص المدرسـي، ولا يجـادل أحـد في أن الحجـاب لا يفرض في الإسـلام إلا علـى الفتاة البالغة، وحتى في أشـد التفاسـير محافظة، ليس قبل سـن التاسعة، أما ما هو محدث فيسـمح بظهور رسوم شـائعة جدا في الملصقات الإعلانية

أو السـجاد رخيص الثمن، تمثل فتيات صـغيرات من طراز «لوليتا» تثير الانتباه بشكل واضح.

هناك في المقابل إعلانات ولوحات هدفها إثارة حماس المرأة الإسلامية، يقدم الحجاب فيها على أنه شرف للمرأة أو حتى إنه «الصَّدَفة التي تخفي في قلبها اللؤلؤة». لكن أحدا لا يلتفت لهذه الإعلانات، وهناك بشكل خاص الدعوة العقدية التي يبثها التلفزيون والأفلام السينمائية.

يعرض في إيران القليل من الأفلام الأجنبيـة، وخلال زمن طويل كان هناك القليل جدا من الأفلام القصـيرة، لأن السـينما كانت قد أغلقت في بداية الثورة ولم تعد لفتح أبوابها إلا بعد انتهاء الحرب الطويلة مع العراق. وهنـاك بعض الأفلام الأمريكية تحديدا تُستورد اليوم من قبل مؤسسـة حكوميـة احتكارية و يحذف منها عادة كل مشـهد فيه الكثير من الإيحاء، وهي الأفلام الوحيدة التي يمكن فيها مشـاهدة نسـاء يمتطين الحصان. أمـا مالكو صـالات السـينما التي لم يدخل عليها تجديدات منذ سـنوات السـبعينيات، فإنهم يائسـون من قدرتهم على ملء صـالاتهم، لأن الإنتاج السـينمائي الإيراني لا يسـتجيب لأذواق الناس، والآن - على الأقل - يبقى كل شيء تحت سيطرة الجمهورية الإسلامية.

والأفـلام الإيرانية التي تعرض على الجمهور الإيراني هي غير الأفلام التي تتألق في المهرجانات الأوروبية، لقد مضت سنوات طويلة قبل أن يسمح بعرض فيلم بعنوان كياروسـتامي مدة تقل عن أسـبوع، وفي صـالة سينما صـغيرة جـداً، مثل هذه الأفلام لا يراها إلا حلقة صـغيرة من الأصـدقاء يدعون بالهاتف إلى الشـقق الخاصة، وبواسطة جهاز DVD، وبشكل عام

يمكــن أن يتســامح النظام مع فيلــم يعرض لكاتب ما عندمــا يتجنب هذا الفيلم القضــايا الساخنة في المجتمع المدني، ويقتصر وبحذر على قصص عن قبائل جبلية معزولة، أو قبائل تعيش في الصحراء، أو ما هو أفضل من ذلك، قصص عن أفغانستان تتضمن مشاهد معينة.

بالتأكيــد، من الممكن أن ترى بين الفينة والأخرى فيلماً هو في آن واحد شعبي ومن مستوى جيد، ففيلم «الحرباء» في المجال الفكاهي يروي قصة ملاّ مزيف، ومع ذلك أوقف عرضــه بعد شــهر واحد بسبب نجاحه الكبير جداً، وفيلم «أنا طارانه، في الخامســة عشر من عمري»، يروي المحن التي تمر بها فتاة صــبية وحيدة في العالم، وكذلك فيلم «ســجن النســاء» الذي يتعرض للواقع المأساوي للسجون في إيران .

ولكن ـ في الواقع ـ فإن الأفلام الإيرانية التي تعرض على الجمهور، هي إما أفلام تهريج مفرط بائســة فنيا، أو أفلام يتكرر فيها الســيناريو نفسه والمنظور الفكري نفســه: رجــل حائر بين فتاتين، إحداهمــا متحررة قليلا (في الواقع قليلا جداً) وطائشــة (في الواقع بالكاد هي طائشة)، والأخرى رمز للنســاء اللواتي يتمتعن بالشــرف الرفيع. خمّن من الامرأتين بعد مئة دقيقة من العرض يمضيه المشاهد وهو يتابع تنقل نظر الرجل الحائر بين غنج ودلال الفتاتين، وهما محجبتان بالطبع ... وينتهي الأمر بالاختيار... نعم أصــبح الدرس واضحا، فمن الأفضل للفتاة في الإسلام لتحصل على زوج أن تكون عذراء عاقلة من أن تكون عذراء طائشة.

هذه الأفلام يراها الناس بالطبع في التلفاز، وحتى في رحلات الطيران الدولية على الخطوط الإيرانية حيث تعرض عليك، حســب الحالة، أول أو

آخر نفحات النظام الإسلامي، وفي الدرب نفسه، ووفق الهدف المخصص لترويض النفوس، يقدم التلفاز الوطني المسلسلات، وقد تحقق حديثا نصر كبير للنساء، فقد أنتج التلفاز الذي يسيطر عليه المحافظون مسلسلا و بدأ ببثه، تتحدث قصته عن المصاعب الداخلية لأسرة دفعت بالزوجة أن تطلب من زوجها أن يضم إلى بيته زوجة ثانية، فلم تحتمل نساء إيران الفكرة فعارضن المسلسل واحتججن بقوة وحتى أمام أزواجهن المحافظين، ونجحن في إيقاف المسلسل قبل انتهاء عرضه.

ويبقى تعدد الزوجات موضوعاً مثيراً للتوتر في المجتمع الإيراني، ليس في شكله التقليدي حيث تسكن زوجتان أو أكثر معاً في بيت واحد، فربما بدأ هذا الوضع في الاختفاء إلا لدى بعض العشائر أو بعض الملالي، أو في زواج المتعة، أي الزواج المؤقت، وهو غير معروف في العالم السني، ولكنه شائع جداً في العالم الشيعي وخاصة في إيران.

وتوخيا للاختصار، فإن بضع كلمات غير مفهومة يغمغم بها الملاّ تتيح للمرء أن يتزوج من سيدة ما لفترة محدودة قد لا تمتد أكثر من بضع ساعات وقد تطول بضع سنين، مقابل تعويض محدد يدفع في نهاية العقد. وإذا ما جرى كل ذلك حسب الأصول فإن تفاصيل الزواج تثبت على الورق. ويستخدم العقد المكتوب لمواجهة شرطة الآداب، إذ يتيح للمتعاقدين الحلول في أحد الفنادق.

هذه الممارسة التي ولدت قديما باعتبارها جزءاً من تنظيم الحروب والحج، ثم انتشرت كثيراً في المجتمعات التقليدية،وفي البازار، وفي أوساط التجار، وعند الملالي أنفسهم، ولكنَّ هذا لا يعني أن هذا النمط من الزواج

قد اختفى في المجتمع الحديث، حيث يستخدم «وبدافع الشفقة» لتغطية عبث أرباب العمل مع سكرتيراتهم.

وأخيراً، فإن الصراع بين النساء والنظام لا يجري إلا في هذه الميادين الصامتة، فإلى جانب الغزو الرقيق للنفوس، هناك الشرطة، وهناك القضاء اللذان يتعاملان بقسوة مع المرأة في إيران.



12

أتصنع القنبلة؟

في ملامسة المسألة المشتعلة المتعلقة بالملف النووي الإيراني، الذي تابعته شخصيا طيلة إقامتي في طهران، وما زلت أتابعه بالطبع حتى اليوم، فإنني أشعر بعاطفة مؤلمة لكوني أميناً على حقيقة، أو على الأقل على عناصر من حقيقة لم أصل إلى قرار في إشراك الآخرين بها، عاطفة مؤلمة بقدر تشددي حيال هذا الموضوع.

عندما أقول ذلك فلأني أضع كلامي أيضاً في إطار نسبي، إذ ليس من الضرورة أن أعاني الأهوال التي عاناها غاليليو لأنه امتلك عقلا، ولا أن أكون شهيد «القديسة الحقيقة»، لذلك سأحاول أن أكون واضحاً وألا أملّ من ذلك.

سأنهي هذه المقدمة الصغيرة بتوضيح ضروري، وهو أنني لا أملك أي سر خاص، أو بالأحرى إن الأسرار الصغيرة القليلة التي يمكن أن أقترب منها بحذر لا تلقي بثقلها على هذا التحليل، إن كل ما يهم فيما سيأتي سواء كان أفعالا أو تبريرات أنه يستند إلى معلومات قديمة قيلت علنا في زمن أو آخر.

وسأورد حول هذا الموضوع المعقد بعض الحقائق البسيطة:

- هل حاول الإيرانيون الحصول على القنبلة؟ الجواب: نعم.

- هل نجحوا في ذلك؟ الجواب لا.

- هل ما زالوا (في عام 2006) بعيدين عن امتلاكها؟ الجواب: نعم.

- هل هم في نقطة أقرب إلى إلغاء الفكرة أم في نقطة أقرب إلى امتلاكها؟ الجواب: إنهم أقرب إلى امتلاكها بقدر السنوات التي توقفوا فيها استعدادا للإقلاع.

- كم من الوقت يلزمهم للحصول على قنبلتهم الأولى؟ الجواب: تقريبا أربع سنوات في الظروف المثالية إذا ما كان قرارهم جازما تماما، وامتلكوا القدرة تماما، وكانوا فاعلين تماما.

- وفيما إذا لم تتحقق هذه الشروط المثالية؟ الجواب: سوف ستصبح السنين الأربعة سبعة أو ثمانية.

- مع كل الافتراضات، هل نستطيع أن نستشف اللحظة التي يصبح فيها الإيرانيون قريبين جدا من هدفهم؟ الجواب: نعم إن وسائل التحقق الفعلي تسمح بذلك.

- ولكن وقبل كل شيء، هل هم مصممون بشكل دائم على امتلاك القنبلة؟ الجواب بالتأكيد، على الأقل إن لم يكونوا جميعا كذلك، فإن قسماً منهم يرغب في ذلك.

- هل يعرفون معنى محاولتهم امتلاك القنبلة؟ الجواب: أقول عن طريق الاستنتاج، يعرفون تقريبا.

- هؤلاء الناس هل لديهم برنامج سري؟ الجواب:ربما، وحتى من المحتمل، ولكن وإن كان هذا البرنامج موجودا، لا يمكن أن يكون

متقدما كثيراً عن البرنامج المعلن، وهذا البرنامج السري، إن كان له مضمون خاص، فهو في مراحله الأولى، وفي كل الأحوال سيحتاج هذا البرنامج إلى السنوات الأربعة التي ذكرتها كي يتمكنوا من إنتاج القنبلة إذا ما بدأ العمل به فعلا.

- ما الطريق الأفضل إذاً لقطع طريق القنبلة على الإيرانيين؟ الجواب: رغم كل شيء، يبقى أسلوب اللين هو الأفضل.

- هل يعني هذا أنه يجب الإقلاع عن طريق العنف؟ الجواب: بالتأكيد لا، إنما يجب ألا يستخدم العنف إلا كوسيلة أخيرة، وإلا إذا كان وصول إيران إلى القنبلة قد اقترب فعلا. لأنه سيكون ضارا جداً، - في الحقيقة - للمنطقة والعالم بأسره.

وكي أساند قليلا الأفكار التي أوردتها أعلاه، وقبل الدخول في جوهر الموضوع، يلزمنا بعض الصبر كي نفهم بشكل جيد ما تتصف به الأعمال النووية من معقولية وما تحمله من منافع، أعني أن الآليات المستخدمة يمكن أن تقود إلى نهاية سلمية تماما كإنتاج الكهرباء، كما يمكن أن تتحول إلى إنتاج القنبلة، وهناك آليتان تسمحان بالضرورة بهذا الاستخدام المزدوج: التخصيب والعزل.

لنتشجع، ولنعده قليلاً إلى مقاعد الدراسة.

تعني عبارة تخصيب اليورانيوم الطبيعي القيام بعملية فصل بين نوعين متميزين من اليورانيوم نجدهما ممتزجين بشكل وثيق في الطبيعة، ولا يمثل اليورانيوم المفيد القابل للاحتراق في الحالة الطبيعية سوى 0.7% من مجموع اليورانيوم، ويضخ اليورانيوم الغازي في أجهزة الدفع المركزي

وهي عبارة عن أجهزة غسيل ضخمة تدور بسرعة كبيرة جدا، أي نحو ألف دورة في الثانية الواحدة، وقد توصلوا إلى رفع نسبة اليورانيوم القابل للاحتراق والمشار إليه أعلاه إلى 3.5%. ويكفي هذا المستوى من التخصيب لصنع قوة احتراق قادرة على تسخين النواة المركزية للذرة وبالتالي إنتاج بخار الماء الذي سيؤدي بدوره إلى تشغيل توربين لإنتاج الكهرباء. ويلزم للوصول إلى ذلك إلى عشرات الآلاف من أجهزة الطرد المركزي. وحتى هذه النقطة يبقى كل شيء في إطار الاستخدام السلمي.

ولكن لا شيء يمنع ميكانيكيا من جعل أجهزة الدفع المركزي تدور بسرعة تتجاوز عتبة 3.5%. ونستطيع أيضا بقليل من الصبر أن نصل إلى أعلى مستويات التخصيب، وعندما يتجاوز اليورانيوم المفيد عتبة الـ 90%، نستطيع بواسطة عشرين إلى خمسة وعشرين كيلو غرام أن نصنع قنبلة، وكانت القنبلة الأولى التي ألقاها الأمريكيون فوق هيروشيما هي من هذا النوع، ونستطيع بألفين إلى ثلاثة آلاف جهاز دفع مركزي من أكثر الموديلات بساطة أن ننتج خلال عام ما يكفي من اليورانيوم المخصب بدرجة عالية واللازم لصنع قنبلة.

أما ما يتعلق بالعزل، فهو عملية تنقية لمواد مستخرجة من قلب المفاعل الذري، ففي هذا القلب الذي يعمل بالتالي اليورانيوم تؤدي التفاعلات النووية التي تجري هناك إلى إنتاج مواد جديدة، وعندما تستخرج هذه المواد من داخل المفاعل، تعرض إلى سلسلة من العمليات الكيمائية تسمح بعزل معدن جديد غير معروف في الطبيعة هو البلوتونيوم، ويمكن استخدام هذا المعدن بمزجه باليورانيوم كوقود لقلب المفاعل، كما يمكن أن يعاد إنتاجه لأغراض صناعية، وبالتالي لغايات سلمية، ولكننا نستطيع بسبعة كيلو غرامات منه إنتاج قنبلة من طراز قنبلة ناغازاكي.

وقد وضعت تقنية تخصيب اليورانيوم عن طريق أجهزة الدفع المركزي موضع الاستخدام في سنوات السبعينيات، وأصبح إنتاج الوقود أكثر بساطة. ومن السهل جداً إخفاء عمليات إنتاج القنبلة، وهذا ما يسعى الإيرانيون إلى تطويرها، و يسعى الآخرون لمنعهم من ذلك، وهناك آليات كافية للوصول إلى ذلك، ولكنْ هناك أيضاً عائق تفرضه السياسة الدولية.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أدرك الأمريكيون حجم المنافع الاقتصادية والمخاطر الاستراتيجية المترافقة مع انتشار التكنولوجيا النووية. فلجؤوا إلى بناء نظام دولي يهدف إلى السيطرة على الوضع.

في البداية، وفي عام 1957 أُنشئت الوكالة الدولية للطاقة الذرية ومقرها فيينا، ويكلف مفتشوها بالتحقق من أن الأجهزة والمواد النووية تنتقل عبر العالم من أجل الاحتياجات الصناعية، وأن الأبحاث النووية لا تستخدم لإنتاج القنابل.

وفي عام 1968 وضعت معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية والتي تنازلت عن بعض الأمور كي لا يضيع كل شيء، فميزت بين نوعين من البلاد، فمن جهة هناك البلدان التي امتلكت سابقا القنبلة الذرية وهي في الحقيقة الأعضاء الخمسة الدائمون في مجلس الأمن، طالما أنه ليس بالإمكان إجبارها على التخلي عما تملكه فعلا، فسمح لها بالاحتفاظ بما تملك. أما القسم الآخر فهم الذين تعهدوا ألا يمتلكونها أبدا، مع الاعتراف الكامل بحقهم في تطوير الاستخدامات السلمية للذرة، وقد انضمت جميع البلدان تقريبا لهذه المعاهدة ما عدا بعض الاستثناءات القليلة جداً، وبشكل خاص الهند وباكستان وإسرائيل. أما إيران فقد انضمت إليها منذ البداية.

ولابـد من عـودة إلى الخلف كي نفهم ما جرى بعد ذلك. لننضـم الآن إلى الشاه في السبعينيات.

في تلك الفترة فكر الشـاه في تطوير بلاده، وفي الوقت الذي سـتبدأ فيه مصـادر الطاقة بالنضوب، فأطلق برنامجاً ضـخماً لإنتاج الطاقة النووية للأغراض السـلمية بالطبع.ونقول هذا جادين، وسـنعود إليـه فيما بعد، وتطلب الأمر أن تبنى أربعة مفاعلات بسرعة، وعشرون مفاعلا على المدى الطويل، ستنتج في مجموعها عشرين ألف ميجاوات من الكهرباء. وانحنت ثلاث «جنيات» لتحنو على هذا المهد: الولايات المتحدة، ألمانيا، وفرنسا.وقد طلبت المفاعلات الأولى من فرنسـا دون انتظار عروض الدولتين الأخريين وشرع فورا في أعمال البناء، وقد تعهدت فرنسا بالإضافة إلى ذلك، بتزويد إيران باليورانيوم الخفيف اللازم لتشغيل المفاعلات من مصنع التخصيب الجديد: أوروديف.

وعرفتـا مـن الثقـاة المحيطين بالموضـوع أن الشـاه الذي صـدق على معاهدة حظر انتشـار الأسـلحة النووية منذ عـام 1970، قد فكر مع ذلك بمسألة الاستفادة من تطوير برنامج سري يسمح له بامتلاك القنبلة، وبعد موازنة جيدة، رجع عن ذلك بعد نقاش عميق لأن مثل هذه المحاولة سـوف تجلب له من المتاعب ما يفوق الفوائد، وسيسـبب له تشويشـا في العلاقات مـع الولايات المتحـدة التي يحتاجها بشـدة، كما أن الأزمـة التي يمكن أن تنشـب مع الاتحاد السوفييتي أيضاً والذي يتقاسم مع إيران حدودا طويلة مشـتركة لن تكون مطمئنة، ولن تخرج إيران من هذا التشـويش ومن هذه الأزمة منتصـرة أبدا. إذاً، لا برنامج عسـكري سري، وإنما التركيز على الفوائد التي يمكن أن تتحقق من البرنامج السـلمي الذي يسـمح بامتلاك

القدرة النووية مع الضمانات تجاه كل الاحتمالات. وإذا أصبح ذلك ذات يوم ضروريا فيكون قد كسب وقتا ثمينا يقتضيه البرنامج السلمي كي يضع موضع التنفيذ برنامجا عسكريا.

ووقعت الثورة الإسلامية حتى قبل أن ينجز المفاعل الذري الأول الذي طلب من ألمانيا بناؤه، وبالنسبة للملالي كان كل شيء قام به الشاه هو سيئ من الدرجة الأولى، وهكذا أوقف البرنامج النووي على الفور وبعثرت الأجهزة الثمينة التي كانت قد بدأت تصل إلى إيران، أما القسم الأكبر من العلماء والتكنولوجيين فقد غادروا البلاد برضاهم الشخصي أو للتخلص من الاضطهاد الذي تعرضوا له، وهي خسارة لا تعوض لما سيحدث فيما بعد، وكي يضع الأمور في نصابها أعلن الخميني أن القنبلة الذرية «محرمة» في الإسلام.

في أيلول 1980، بدأ جيش صدام بغزو إيران، مدعوما من العالم أجمع ما عدا الصين وإسرائيل، وبعد عشر سنوات دمر الطيران الإسرائيلي المفاعل النووي للأبحاث المثير للجدل والذي بنته له فرنسا، لكن تدمير المفاعل لم يحبط سيد بغداد، بل استثاره ـ كما يقولون اليوم ـ فانطلق بشكل جنوني في طريق أسلحة الدمار الشامل: لا نووية فقط، إنما كيميائية وبيولوجية أيضاً، وفي كل الأحوال كان برنامج النوعين الأخيرين بالكاد سريا، فقد تعاملت ألمانيا وأمريكا بتراخ مع مصانعهما التي كانت تصدر المواد اللازمة لهذا البرنامج.

وكل هذا لم يكن بمقدور الإيرانيين تجاهله لأن جنودهم وحتى المدنيين القريبين من الحدود ـ كالأكراد ـ تحولوا إلى ضحايا بعشرات الألوف

للهجمات الكيماوية بالغاز، ولم تجر في الغرب إدانات لهذه الهجمات إلا من رؤوس الشفاه، ونستطيع بسهولة أن نستنتج أنه في تلك الحقبة، حقبة الحرب، قرر الإيرانيون إطلاق برامجهم الخاصة كي لا يؤاخذوا ذات يوم على التقصير، لذلك كان من الطبيعي جدا أن يعهد بهذه البرامج ومنها البرنامج النووي إلى العسكريين، وبتحديد أكثر إلى الحرس الثوري، هذا الجهاز من النخبة الذي أسسه النظام، والوحيد في عالم الدفاع الذي يجب أن يتمتع بالثقة.

لكن الباسدران، ومهما كان حماسه الثوري لا يملك القدرة إطلاقا في الميدان العلمي النووي، أما مصادر الاختصاصيين، كما رأينا، فقد تلاشت واقعيا، لذلك بقيت مشاريع الأبحاث التي أطلقت في مرحلتها البدائية. وأمام ضخامة المهمة حاولوا أيضاً أن يحصلوا من بين أنقاض الإمبراطورية السوفيتية على قنابل وصواريخ قد تكون ما زالت على الرفوف، لكنهم لم ينجحوا في ذلك، وإن كانوا قد حصلوا على الكثير خلسة، وباختصار وجدوا أنفسهم بعد عشر سنوات من العمل، وبكثير من الأموال التي أنفقت و ذهب بعضها دون شك إلى جيوبهم، وجدوا أنفسهم في نقطة البداية تقريباً.

وشعر النظام بالقلق من هذه النتائج المؤسفة، ورأت النواة الباقية من الاختصاصيين المدنيين ـ التي كانت تعمل حول مفاعل صغير جدا للأبحاث من أصل أمريكي، وداخل عدة مختبرات مرافقة ـ أنها اللحظة المناسبة ليستعيدوا فيها دورهم، كانت الحرب مع العراق قد انتهت منذ سنوات عديدة، وكان صدام يعاني من حرب الخليج التي أدت إلى تدمير برامجه لأسلحة الدمار الشامل، وهكذا حصل المدنيون على موافقة السلطات بأن يعود الشأن النووي إلى سلطتهم، أي إلى الهيئة الإيرانية للطاقة النووية.

وكان لا بد من إعطاء الكثير من العزاء للحرس الثوري الذي لا يستطيع أن يتحمل الإهانة، وكان ذلك عن طريق العهدة إليه بمسؤولية برنامج الصواريخ البالاستية، وما زال حتى اليوم ممسكا به ويقوم بتنفيذه بمساعدة خاصة من كوريا الشمالية لإنتاج الصاروخ شهاب 3، وهو صاروخ بالاستي يبلغ مداه النظري ألف وثلاث مئة كيلو متر، وإذا زود هذا الصاروخ ذات يوم برأس نووي فسيشكل تهديدا خطيرا لكل دول المنطقة، وبالتالي خطراً كبيراً على إسرائيل، إذ إن إيران ومنذ الدعوات التي كان الخميني يطلقها، تهدد إسرائيل بمحوها عن الخارطة، ونحن اليوم مع كثير من الاعتقاد أو قليل منه حسب المناسبات أمام دعوة مثيرة للقلق من جانب أحمدي نجاد.

ونستطيع أن نقول من خلال معرفتنا بالأخلاق البيروقراطية وبشكل خاص لدى الحرس الثوري الذي لا يفعل إلا ما في رأسه، إنه لم يحول إلى المدنيين كل الجهاز البشري وكل الأجهزة وكل المواد والمعطيات التي استطاع تجميعها خلال عشر سنوات، وربما وبسبب المرارة التي كان يشعر بها احتفظ برجال ومعدات ومواد تنتهي بشكل محدد إلى استخدامات عسكرية: أساليب صنع المحرك الانفجاري، ومخططات الرأس النووي، فإذا كان هناك اليوم برنامج نووي سري، فيجب أن نبحث عن أصوله هناك.

والهيئة الإيرانية للطاقة الذرية، وبعبارة أخرى المدنيون، انطلقت من جانبها إلى العمل، وقد استأنفت عملها منطلقة تقريبا من برنامج الشاه للتطوير النووي وحصلت على خبراء روس قاموا بإنجاز المفاعل النووي في بوشهر الذي تخلى عنه الألمان ورفضوا استئناف العمل في بنائه، وأما ما يتعلق بتخصيب اليورانيوم فقد حصلت الهيئة، في هذا الظرف أو ذاك،

علـى الخطط وأجهزة الطـرد المركزي التي اشـتراها الحرس الثوري من شـبكة الدكتـور عبد القادر خـان أب القنبلة الباكسـتانية. وقـد قام هذا الرجل الذي لم يكن سعيدا في العمل لدى الحكومة الباكستانية، بتضخيم خبرته و تأسيس مشروعه التجاري الصغير.

أما ما يتعلق بالوقود المركزي لمفاعل بوشهر، فسوف يقوم الروس بتزويده بـه. ولكـن الإيرانيـين لا يريـدون أن يقعـوا تحت رحمـة مزود واحـد بينما سيمتلكون مستقبلا عدة مفاعلات نووية، إنهم يتذكرون الطريقة التي تراجع فيها الفرنسيون عن التزاماتهم التي قدموها للشاه في احتفاظ لإيران بجزء مـن اليورانيوم المخصـب الخفيف الذي ينتجه مصـنعهم في إيروديف، وقد رفضـ الغربيون مدفوعين من الأمريكيين القيـام بأي تعاون نووي مع إيران، ليسـ فقط ـ ولا حاجـة لذكر ذلك ـ في الميادين المعقولة، بل حتى في الميادين التكنولوجية التي لا تسبب أي خطر في تحويلها إلى غايات عسكرية.

لذلك قرر الإيرانيون أن يطلقوا برنامجهم الخاص لتصنيع اليورانيوم المخصـب، منطلقـين دون شـك من نفس التعليـل الذي اعتمده الشـاه في السـابق: لنضـع هذه التكنولوجيا في الاسـتخدام للأغراض المدنية، وإذا احتجنا ذات يوم، في حالة ظهور ابن لصـدام في المنطقة، سـيكون عندها قد حل الوقت لتحويل اسـتخدام هذه التكنولوجيا إلى أغراض عسـكرية. وهكـذا انهمكوا في بناء مصـنع أجهزة الطرد المركـزي في نانتز، أقيم في عرض الصـحراء، ويمكن مشـاهدته عبر صـور القمر الاصطناعي وكأنه أنف في وسط وجه، كما يمكن مشاهدته أثناء المرور بالطريق الوطني الذي يستخدمه السياح، بمن فيهم السـياح الأجانب، والدبلوماسيون، والذي لا يضم إطلاقا أي مبنى سري.

عندما اتسعت الضجة في المجتمع الدولي عام 2002 اشتدت الانفعالات في الوقت الذي كان فيه المصنع بعيدا عن البدء بالعمل أو حتى أن يكون قد زود بعدد مهم من أجهزة الطرد المركزي الجاهزة للعمل. وقامت حكومة خاتمي التي بدا عليها الارتباك واضحاً من هذا المصدر الجديد لتعقيد العلاقات مع العالم الخارجي بالاحتجاج بشدة مدافعة عن صفاء مقاصدها ومذكرة بأنها موقعة على معاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية، ولكنها أكدت في الوقت نفسه عزمها على متابعة إنجاح برنامجها النووي السلمي كما هو مخطط له، وقد قبلت إيران، تأكيداً لالتزاماتها الدولية ــ وهذا متفق عليه ـ كل عمليات التفتيش التي تقوم بها المنظمة الدولية في فيينا.

وسارع مفتشو المنظمة بالتوجه إلى إيران، وحشروا أنوفهم في مصنع نانتز، وكذلك في كل مواقع الأبحاث النووية التي أشير عليهم بها، وقد وجدوا في الواقع الكثير من علامات برامج سرية طورت بنجاح ضئيل كالذي عرفوه في الثمانينيات والتسعينيات، كما وجدوا في مصنع متواضع في ضاحية طهران آثار نشاطات للدفع المركزي على مستوى ضعيف جدا والذي حاول الإيرانيون في البداية إخفاءه.

لم يعلن شيء من هذا في الهيئة الدولية للطاقة الذرية، وأصبحت إيران مذنبة لمخالفتها التزاماتها، وبدؤوا يتحدثون ــ وأمريكا في المقدمة ـ عن دفع الملف إلى مجلس الأمن، وأمام إجراء متوقع كهذا وبالمقارنة مع صغر وقدم المخالفات المرتكبة، حسب رأي إيران، والتي تواجه التأنيب بسببها، فقد بدأت إيران تحتد.

وهكذا وبمبادرة من فرنسا، وبشكل خاص من دومينيك دو فيلبان الذي كان في حينه وزيرا للشـؤون الخارجية، قامت ثلاث دول أوروبية هي ألمانيا وبريطانيا وفرنسا نفسها بدعوة إيران في صيف عام 2003 إلى التخلي عن تطويـر تكنولوجيا الطرد المركزي وتجهيـز تكنولوجيا العزل وهي الطريق الثـاني إلى القنبلـة، وعرضـت بالمقابـل أن تتوقف في الوقـت الحالي عن إحالتها إلى مجلس الأمن، كما عرضت عليها الاعتراف بحقها في التطوير النووي السلمي، وبإطلاق برنامج تعاون تكنولوجي معها في ميادين معينة، مع تقديم ضمانات لأمنها.

وأبـدت إيران اهتماما بالعرض، عدا ما يتعلق بالنقطة الحاسـمة وهي التخلـي عن التخصـيب، وقرر دومينيـك دوفيلبان قيـادة زميليه في رحلة توضـيحية إلى إيـران في تشـرين الأول 2003، وهنـاك تمكنـوا من انتزاع موافقـة إيـران، على الأقـل بتعليق فعالياتهـا في ميدان الطـرد المركزي، وقبـول نظام تفتيشـ مدعوم من الوكالة الدوليـة في فيينا، مقابل الدخول في مفاوضات مع البلدان الأوروبية الثلاثة حول الثغرات التي فتحت سابقا المتعلقة بالتعاون والضمانات، ويتخلى الأوروبيون على الأقل مؤقتا عن فكرة مثول إيران أمام مجلس الأمن .

وبعد ما يقرب من سنتين من الصعود والهبوط، انتهت المفاوضات إلى الفشـل، واعتبر اتفاق تشـرين الأول 2003 من قبـل الطرفين أنه في حكم المنتهـي، وفي بداية 2006، اسـتأنف الإيرانيون أنشـطة التخصـيب، على الأقل على مسـتوى ضـيق، وأقنع الأوروبيون أعضاء مجلس الحكومات في الوكالة الدولية للطاقة الذرية بتكليف مجلس الأمن بالموضوع الإيراني.

وهكـذا أغلقت المرحلة الأولى من الحوار النزاع بين إيران والغرب، هل هناك فرصــة ما لإيجاد مخرج لانقطاع الحوار؟ في الحقيقة لا، على الأقل لثلاثة أسباب.

السبب الأول: هو سبب ظرفي طارئ، فنبض المشروع كان مصدره شخص واحـد، وهو دومينيك دوفيلبان وحده، فمزاج الوزير الفرنسـي بضـرورة العمـل للتغلـب علـى المحتوم، جـرّ خلفه الوزيريـن الألمـاني والبريطاني، وانقلب لدى الإيرانيين إلى ثقة بالنفس لا تقاوم، وعندما حل في طهران مع زميليه لم يتمكن من التغلب على أي عقبة، وقد أتيح لي أن أحضـر مشهدا غريبا مخالفا للمألوف: ثلاثة وزراء خارجية يفاوضـون على قدم المساواة لما يقرب من ساعتين مخاطبهم الإيراني على نص اتفاق من المفترض أن يعلن على الملأ، عبر حشد من الصحفيين كان ينتظر في غرفة أخرى .

وترك دو فيلبان منصـبه وتجدد الحوار حول الملف مع ميشيل بارنييه، وهو وزير يتمتع بصـفات عظيمة، لكنه لم يكن مشـاركا في موضـوع الملف منذ بدايته، ولم يتمكن من أداء دور القائد، بعد ذلك وصل فيليب دوست ـ بلازي، الذي جرب ـ شأنه شأن الآخرين ـ حظه كمفاوض، وهكذا تناقص وزن فرنسـا في المفاوضـات، وانتقل الملف إلى أيدي موظفين يعرفون جيدا مسـائل التناسـل، ولكنهم يعرفون إيران بشكل سـيئ وليس لديهم الرغبة في التعـرف إليهـا، لقد عاشـوا عنـد كل منعطف في وهم أن إيران سـوف تتنـازل في النهاية عن موقفها إذا ما مارسـوا قليلا من الضـغوط عليها، وكانوا جميعا غارقين في منطق الذراع الحديدية، وهو منطق يصعب دائما التخلص منه.

حتى الناس الذين يعرفون إيران قليلا ، يعرفون أنها لن تتنازل، وبالعكس سيدفعها المزيد من الضغط للشعور بأنها ضحية مؤامرة غربية تهدف إلى سد طريق الحداثة عليها، وهكذا تحول موضوع التمكن من عمليات الطرد المركزي إلى قضية وطنية كبرى.

ويقودنا هذا إلى السبب الثاني للفشل. وهو أن الأوروبيين لم يعدلوا أبدا من هدفهم الأساس، وهو دفع إيران نحو تعليق غير محدد المدة لعمليات التخصيب، وبمعنى آخر أن تتخلى إيران نهائيا عن ذلك، إذما إن يقبل التعليق مرة، فلن يكون لدى أي جانب أوروبي بعده، أي استعجال لاستئناف الإيرانيين التخصيب، وفي تشرين الأول وفي خضم المحادثات مع الوزراء الأوروبيين الثلاثة قال المحاور الإيراني للصحافة علنا بأن هذا التعليق لن يستمر أكثر من مدة المفاوضات التي يعتقد أنها لن تطول أكثر من عام واحد بدءا من الآن، لكن المحادثات استمرت في الحقيقة أكثر من سنتين.

أما السبب الثالث فهو أن الأوروبيين لم يوفقوا أبدا في المفاوضات التي كانوا يديرونها، في الحصول من واشنطن على قرار بتخفيف مهم للعقوبات الاقتصادية على إيران، وكان الوعد بتخفيف حدة الموقف الأمريكي خطوة أولى لا يمكن تجاوزها لعرض مشجع فعلا للتعاون في الميادين التكنولوجية الرئيسة: الذرة، الملاحة الجوية، البترول... إلخ.

في الواقع، تطلب الأمر أن يتعكّر مزاج الروس والصينيين للحصول أخيرا على ثغرة في الموقف الأمريكي، والأسف الذي يتملكنا في هذه النقطة من القصة هو أن المرحلة الأولى من المفاوضات قد امتدت مدة طويلة، وأن انقلاب موقف الولايات المتحدة قد وصل في حقبة متأخرة جداً بعد رحيل المعتدلين أي الرئيس خاتمي وفريقه المفاوض.

لنستعد معا شريط الأحداث. في مارس 2006، أنذر مجلس الأمن ـ الذي أمسك بالملف الإيراني وبترجيح صوت رئيسه ـ إيران بوضع نهاية لأعمال التخصيب التي تقوم بها، ولكن إيران أصمّت آذانها عن ذلك، وعندما حاولت الولايات المتحدة تؤيدها الدول الأوروبية الثلاثة الحصول على قرار من مجلس الأمن وبصيغة تحرك طيف العقوبات، قاومت الصين وروسيا القرار باعتبارهما تملكان حق الفيتو، فإيران بالنسبة لهما شريك مهم، ولم تكونا مقتنعتين أن الملف يستحق هذا الاستعجال، ولم ترغبا في المخاطرة بتمرير سيناريو على الطريقة العراقية.

وهنا حصلت مفاجأة! فأمام الطريق المسدود، قرر بوش الإصغاء إلى هؤلاء وأولئك، وعرض أيضاً إمكانية التفاوض مع الإيرانيين فيما إذا قرروا فعليا ومن جديد تعليق كل عمليات التخصيب، وسرّب معلقون رسميون أنه في يوم ما ـ بعيد بالتأكيد ـ سيكون بإمكان الإيرانيين إن أرادوا استعادة ثقة المجتمع الدولي أن يديروا على الأقل عدداً صغيراً من أجهزة الطرد المركزي، وهكذا انقلب «التابو ـ التحريم» وانتهى «الحق صفر» في استخدام الدفع المركزي، وفتحت مرحلة جديدة من المفاوضات والتي ما زال مبكرا القول فيما إذا كانت ستفضي إلى شيء أم لا.

هناك اليوم سؤالان مطروحان: أولا نحن لا نعرف حتى الآن وبشكل دقيق ما إذا كان الإيرانيون راغبين في الإمساك باليد الأمريكية التي امتدت إليهم، ولو حتى برؤوس الأصابع، أم أنهم يريدون فعلا أن يأتي الأمريكيون؟ ثم أين يريد الإيرانيون أنفسهم أن يصلوا؟ ومع أن اللعبة ما زالت مستمرة ـ صيف 2006 ـ فإننا سنجرب الوصول إلى بعض الاستنتاجات.

أيـن يريـد الأمريكيـون أن يبلغـوا؟ في البداية كانوا معاديـن للمبادرة الأوروبية طالما أنها أخرت ـ في رأيهم ـ الفرصة لإدانة إيران من قبل مجلس الأمن، وبعد ذلك أيدوها بكثير من الرخاوة وبشـرط ألا يتخلى الأوروبيون عن مطالبتهم بتخلي إيران نهائيا عن عمليات الطرد المركزي، لقد خشوا علـى الأخص من أن يتحول فشـل المبادرة الأوروبيـة إلى نجاح لإيران، بل إلى دعـم لنظام تتمنى لـه إدارة بوش بحرارة السـقوط كي تعطى أمريكا مجددا الدور الوحيد الذي تحكمه مقاييسـها في علاقتها مع البلد الرئيس في المنطقة: البلد الأول بلا منازع.

ومـع ذلـك، وافقـت الإدارة الأمريكيـة في النهاية علـى الإمكانية التي منعتهـا طويلا عن الأوروبيين، لإعطاء إيـران الحق في تطوير قدرتها على التخصـيب، ولم يكن الموقف الأمريكي الجديد ناتجا عن مكيافيلية، ولكن وبسبب الضرورة الملحة عن براجماتية.

كان عليهـا في البدايـة الاعتراف أن الأمر انتهى بإيران إلى حصـولها فعليـا على أسـس التكنولوجيا النووية طالما أنها توصـلت إلى تشـغيل، ولو لوقت محدود، بضـع عشـرات مـن أجهزة الطـرد المركزي، كمـا أنه من المستحيل محو ما تحقق لها من معارف في هذا الميدان.

واستنتجت بعد ذلك أن النظام الإيراني هو أقل هشاشة مما اعتقدت فيما يتعلق بالأهداف، وقد قادتها الصـعوبات المستعصـية على الحل التي تواجههـا في العـراق إلى النظـر إليه عن قـرب أكثر، لكن رئيسـ الأركان الذي أصـدرت إليه التعليمات بتحضـير بعض الخطـط لهجوم محتمل لم يفته أن يتحدث عن الصعوبات والشكوك حول عمل كهذا، ثم أكمل الرفض الصيني والروسي للإدانة بالبقية.

ويكمن في صلب العرض الأمريكي أمل أن ينتهي الأمر بإيران برفضه، فيضعها بلا جدال في الموقف السيئ فتتيح فرصة جديدة للمجتمع الدولي لإدانتها، وعلى كل حال فقد قدم العرض بشيء من اللامبالاة، لكنه عاش على الرغم من ذلك حياته الخاصة، وتوفر لإيران فرصة للخلاص من خطوة سيئة كانت ستفرض عليها بسبب أخطاء الأمريكيين الخاصة.

وفي الحقيقة، ولكي تكتمل الصورة يجب أن نتذكر أيضا، بعد أن سلّطنا الضوء على أخطاء الغرب، أن الجمهورية الإسلامية ارتكبت أيضاً الكثير من الأخطاء قبل انتخاب أحمدي نجاد وبعد انتخابه، فالاعتراف رغما عنها بالمخالفات التي ارتكبتها أمر لا جدال فيه، والتباطؤ في الاستجابة لكل مطالب مفتشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية رغم أنها مطالب مبنية على حرفية النصوص، وأحيانا أبعد من ذلك، ثم إساءة استعمال الحق وبشكل عدواني في الحصول على كل التكنولوجيات النووية التي وفرتها لها عضويتها في معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية متجاهلة أن هذه الحقوق ترتب بالمقابل وبمنتهى الوضوح واجبات استخفت بها على مدى عشرين عاماً.

وكذلك الاعتقاد برعونة كبيرة أن قضية كهذه يمكن أن يجري التفاوض عليها وفق الأساليب التقليدية للبازار، وكذلك رفع حرارة الرأي العام إلى حدها الأقصى حول موضوع العدوان على إيران، لكي يقال بعد ذلك إن هذا الارتفاع يمنعها من تقديم أي تنازل، لقد جرى كل ذلك دون أن تحسب حساب الأقوال التي صدرت عن الرئيس أحمدي نجاد عن إسرائيل وعن المحرقة، والتي شكلت بكل معنى الكلمة فضيحة دولية، كما أرخت بثقلها على المنطقة كلها[1].

(1) هذا رأي المؤلف، أما موضوع المحرقة فقد نُفِي قبل ذلك من طرف مؤرخين غربيين، وليس الرئيس الإيراني أول من نفاه.

كمـا أن أي خبـير نووي معروف من أقرانه لا يتصـور أن تتمكن إيران حتى لو حطمت غداً كل أشـرعة القانون الدولي، وعبأت أفضـل مواردها، مـن تجميـع أول محرك نووي بدائي قبل أربع أو خمس سـنوات، وبعد هذه النتيجة الأولى ستحتاج إيران لصنع قنبلة وصاروخ قادرين على ضرب عدو جيد التسليح حتى الموت، إلى سنوات طويلة. ولن يستطيع أي شيء إخفاء هذا النشـاط على المدى الطويل، وسـتجعل إيران من نفسها هدفا لأولئك الذين يريدون أن يصوبوا عليه، ونفكر هنا بشكل خاص في إسرائيل.

ولا تغيـب هذه الحقائق عن أذهان الإيرانيين، ولذلك فلا شـيء يوحي بأنهم أخذوا القرار المحفوف بالمخاطر بتحويل بلادهم إلى ترسانة نووية. كمـا أن اكتشـاف الانتهاكات التـي ارتكبت في السـابق والمرتبطة ببرنامج سري أوحى بشكل خاص بالواقع المتعثر لهذا البرنامج، وأخيراً، فيما يتعلق بالحاضـر والمسـتقبل، لم يثبت رغم العديد من الزيارات المكثفة لمفتشـي الوكالة الدوليـة للطاقة الذرية وتقارير أجهزة الاسـتخبارات المختلفة،أن إيران تتحرك في طريق سري باتجاه القنبلة. هناك إذاً ـ الآن وأكثر من أي وقت مضى ـ مادة للتفاوض عليها.

ومـع ذلـك، هل من المحتمل أن نصـل إلى اتفاق مع شخصـيات بعيدة جـدا عنا، ومعادية أيضـاً للغرب مثل خامنئي قائد الثـورة وأحمدي نجاد رئيسـ الجمهورية؟ ومع أناس كقادة الحرس الثوري؟ وهل من الممكن بعد كل شيء أن نمنحهم الحد الأدنى من الثقة.

أن نمنحهم الثقة أمر غير مؤكد، وليس هنـاك أي سبب يجعلنا نمنحهم ثقتنـا، فهـم لا يمنحوننـا بالمقابل ثقتهـم، وحتى لو منحناهـم الثقة فمن

يستطيع أن يقول لنا على ماذا سيجمع خلفاؤهم؟ من الأفضل أن نثبت هنا من حيث المبدأ أن كائنا من يكون في إيران سيبقى هناك أناس يرغبون في الحصول على القنبلة.

على أنه إذا لم نستطع التغلب على النوايا، فإن بإمكاننا منع الحصول على القدرات. لكن طالما أن إيران تعلن اليوم عن أهدافها السلمية، فيجب أن نأخذ كلمتها مأخذ الجد، ونعقد معها ومع الهيئة الدولية للطاقة الذرية صاحبة الاختصاص اتفاقاً قابلاً للحياة وصالحاً للتحقق، اتفاقاً يسير بمحاذاة نشاطاتها ويستطيع، بإجراءات معقولة، تنبيهنا إلى أي انتهاك جديد قد ترتكبه إيران.

لنقل أخيرا وبالكلام العريض، إننا لا نستطيع أن نضع حدوداً للتفاوض استناداً إلى اتفاقيات تعقدها الدول القوية فيما بينها، فوضع القواعد الدولية لمنع انتشار الأسلحة النووية يجب ألا يقتصر فقط على الدول التي لا تعاني من مشكلات في هذا الميدان، بينما يفرض على الدول الأخرى أن تتنحى سلفا، ولأي سبب كان، وتقبل بشكل خاص بقواعد تحد من قدراتها.

ونحن نعرف كيف تبدأ الأزمات ولكننا لا نعرف أبدا كيف تنتهي، وقد بدأت كل الأزمات التي تعذر السيطرة عليها فيما بعد باعتبارها أزمات يظن كل طرف فيها أن باستطاعته السيطرة عليها، ويجب النظر، على الدوام، إلى أن استخدام القوة من طرف ما يمكن مواجهته بالقوة من الطرف الآخر، وعلمتنا خبرة القرون الماضية وحتى خبرة أيامنا الحاضرة في الشرق الأوسط، أن هذا الأسلوب هو وليد النظام الجديد أو الفوضى الجديدة ، ولكنه لم يصل بهم إلى ما يهدفون إليه.

يجـب إذاً التفاوض مع إيـران، حتى اللحظـة التي تسـتنفد فيها كل الطـرق المؤدية للاتفـاق الذي يحد من انتشـار التهديد القريب لوصـول إيـران إلى القنبلـة. ونحـن ما زلنا بعيديـن عن ذلك، وهنا تبرز مسـألة الرفـاه الاجتماعـي في إيـران وهو أمـر لا يمكن أن نكون غـير مبالين به. وهنـاك التوازن في المنطقة وهـو توازن بمنتهى الهشاشـة، وهناك أخيرا مسـألة عدم انتشار الأسلحة النووية والتي لا نستطيع أن نلعب بها «الطرة والنقش» خوفا من الانتقال إلى أوضاع صعبة من صراعات جديدة نورثها الأجيال القادمة.

ونختتم هذا الفصل بإيراد مثل إيراني يقول: إذا كنت تستطيع أن تفك العقدة بأصابعك، فلماذا تستخدم أسنانك؟.



الخاتمة

وأين فرنسا من كل هذا؟ لم نتكلم في هذا الكتاب عن ذلك، وسيكون من غير المفيد أن ننهي الكتاب دون أن نقول كلمة بهذا الخصوص.

والسبب بسيط. ففرنسا تحتل مكاناً خاصاً في قلوب الإيرانيين، لأنها بعكس القوى الكبرى الأوروبية الأخرى وبعكس الولايات المتحدة، لم تضع نفسها يوما موضع من يعامل إيران بلغة القوة، وكان ينظر إليها دوما من خلال أفضل أيامها بأنها أم الفنون وأم القانون.

الأبطال الفرنسيون في إيران هم أطباء ومهندسون وخبراء عسكريون وفنانون رسامون ومشرعون وعلماء آثار، وحتى عندما يكونون تجارا مثل شاروان الجواهري في بلاط الشاه، لقد روى هذا التاجر رحلاته إلى بلاد فارس في اثني عشر مجلداً، قرأتها كل أوروبا بحماس كبير، وخلقت في فرنسا شغفا بالغا ببلاد فارس والشعب الفارسي. هذا الطراز من الأبطال هو الذي خلق فيما بعد ـ وبنجاح كبير ـ كتاب «الرسائل الفارسية».

ومنذ ذلك الحين لم تنقطع الصداقة مع فرنسا أبدا، وإذا كانت إيران تتطلع منذ وقت طويل نحو فرنسا، فإن فرنسا بالمقابل تنظر إلى إيران باهتمام وفضول كبيرين، وابتداء من القرن السابع عشر لم يتعامل أي من البلدين بلا مبالاة مع البلد الآخر.

وفي القرن التاسع عشر عندما باع الملوك القاجاريون المفلسون بالمزاد مصادر الثروات في البلاد، عرضت عليهم بريطانيا احتكار التبغ، ومن ثم

حصلت على أول امتياز بترولي، وقبض البلجيكيون على زمام الاحتكار الجمركي، وقدمت فرنسا مشروع احتكار التنقيب عن الآثار، وقد جرى نقاش برلماني حول الموضوع وكان حادا، ولكنه أيضا كان جادا وجيداً، وقد انتهى بالموافقة على تمويل المشروع، ويرتبط هذا الأمر في نفوس الإيرانيين و باستمرار بمجد آثار سوس التي أثارت في الواقع إعجاب العالم كله.

بالتأكيد هناك بعض الخروقات في هذه اللوحة التي تتسم بالحب الكامل.

أول هذه الخروقات قديم وصغير بلا شك، وهو ما قام به نابليون، فهذا الرجل وبعد أن تعلق لفترة ببلاد فارس ضمن فكرة ضمها الى إمبراطوريته ليقوم بعد ذلك بفتح الهند، تخلى عن كل أصدقائه في حينه عندما وقع مع القيصر معاهدة تلسيت، ولم يحتمل القيصر إزعاجات الفرنسيين في محيط القوقاز الذي يعتبره محمية له، وفي بلاط الشاه كانت خيبة الأمل محرقة، ولكنهم وقد أغراهم بلا شك أن يكونوا موضع اهتمام أبطال ذلك الزمان فقد غفر الفرس للفرنسيين فعلتهم.

اختراق آخر صغير أيضاً، ارتكبه هذه المرة الآثاريون منذ مئة سنة نتيجة التنقيب عن صرح حمورابي الذي وجد في سوس. ويتعلق الأمر بقطعة ذات أهمية تاريخية فريدة، يجب أن يقنعنا الموقف الأخلاقي بتركها في إيران لا نقلها إلى فرنسا. بالتأكيد قام الأخميديون بسرقة البابليين، ولكن هل نقلدهم في جريمتهم؟. وفي المتحف الوطني في طهران تعرض نسخة من هذه القطعة من الجص مشوهة قليلا حيث تتناثر عليها لطخ بيضاء كتعبير عن احتجاج صامت ضد عملية النهب الفرنسي. ولنذكر أيضاً - كي يغفروا لنا - أن الآثاريين الفرنسيين استنوا لأنفسهم قانونا ألا يحملوا معهم خارج إيران ولو كسرة صغيرة من إناء فخاري.

أما ثالث هذه الخروق والذي نأمل أن يكون الأخير فقد جرى على صعيد آخر تماما، يتعلق الأمر بدعم فرنسا لصدام حسين في حربه ضد إيران، و كان دعما نشطا وفعالا، دعماً مهماً وحاسماً. وإذا تجاوزنا في حديثنا، الذخائر وطائرات الميراج، فإن الإعلان في ربيع 1983 عن مشروع لتجهيز العراق بخمس طائرات من طراز سوبرإتندار نظرت إليه إيران وكأنه إعلان حرب، وقد وصلت الطائرات في تشرين الأول مع صواريخ إكزوست، وسرت الإشاعة في طهران أن طيارين فرنسيين يقودونها، وهدفت العملية فعلا إلى القيام بمهمات غامضة ضد المواقع النفطية وناقلات النفط، ولكي نمسك بالصدمة التي تلقاها الجيل الذي عاشها يجب أن نعرف وبعد عشرين عاما من الحادث أن كلمة سوبراتندار ما زالت تخرج من أفواه الإيرانيين بلا تلعثم ولا تشويه.

بالتأكيد، في تلك الفترة لم يخلد الإيرانيون للراحة، ففي تموز 1980 كان هناك الاعتداء الفاجع الذي ارتكبه أنيس النقاش ضد شهبور بختيار، والذي أمر به بشكل واضح آية الله الخميني. وأدى الاعتداء إلى وفاة جار للسياسي الإيراني وإصابة شرطي فرنسي بالشلل التام مدى الحياة. ثم تحققت فتوى القائد أخيرا بعد أحد عشر عاما مستخفا تماما بحقوق الناس. وبعد أسبوعين من تسليم طائرات السوبرإتندار وقع انفجار ضخم في 23 تشرين الأول 1983 فجرا فدمر مبنى في بيروت وأدى إلى مقتل ثمانية وخمسين جنديا من الوحدة الفرنسية التي اتخذت موقعها باسم دراكار، وبالكاد استطاع الحرس الثوري أن يخفوا رضاهم عن الحادث، والحقيقة أنهم كانوا هم المحرضون عليه، شأنه في ذلك شأن الهجوم الانتحاري الذي وقع قبل بضع دقائق من الحادث المذكور بواسطة

شاحنة محشوة بالمتفجرات انفجرت قرب المطار وقتلت ما يزيد عن مئتين وخمسين أمريكيا من جنود المارينز، وكان الجنود الفرنسيون والأمريكيون قد أتوا إلى لبنان في إطار القوة متعددة الجنسيات لحفظ الأمن والمسؤولة عن استعادة السلم الأهلي في لبنان.

هذه الأفعال بعيدة عن الاعتراف بالجميل لفرنسا و الذي جرى التعبير عنه في بداية الثورة، ولاستقبالها لشهور أربعة ـ وعلى ترابها الإمام الخميني. في تلك الفترة ـ وضعت أكوام من طاقات الأزهار أمام السفارة الفرنسية ومكاتب شركة طيران الأيرفرانس في طهران، كما أطلق اسم نوفيل دوشاتو على الشارع الذي تقع فيه السفارة. في عام 1983 أصبحت المظاهرات عدائية، وأطلقت قنبلتان على مدخل البعثة الاقتصادية الفرنسية كما انفجرت قنابل أخرى أمام مكاتب الأيرفرانس، وجرت محاولتان لاغتيال دبلوماسيينا الذين تركوا منذ عام 1981 دون سفير بسبب جمود العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

واستمر الوضع في التدهور، ولم يعد الإيرانيون يحتملون مراعاة فرنسا لمنظمة مجاهدي خلق اليسارية المتطرفة والمعارضة للنظام، والتي أقامت مقرها الرئيس في اوفرسوروواز، كما استقبل مسؤولوها في وزارة الخارجية، بينما كانت تتابع زرع الرعب في طهران، ودخلنا حينها في فترة مضطربة من اختطاف الرهائن في بيروت إلى تفجير القنابل في شوارع باريس ومخازنها الكبرى، وبلغت تلك الحقبة أوجها بعملية غرودجي وحرب السفارات التي أشعلها حصار السفارة الإيرانية في فرنسا.

ثم بدأت عملية الانحسار والتي اتسمت بتحرير الفرنسيين المختطفين الثلاثة قي أيار 1983 في لبنان، واستئناف العلاقات الدبلوماسية في تموز

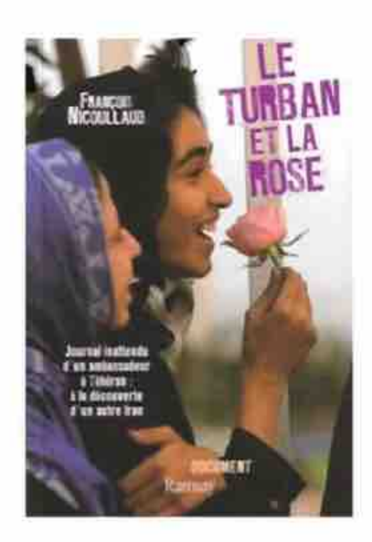
من ذلك العام، وقد أفرج عن أنيس نقاش بداعي حسن السلوك بعد أن أمضى نصف الحكم الصادر بحقه وهو عشرون عاما، وهو إجراء يسمح به القانون الفرنسي، وبعد عام من ذلك، وبعد عشر سنوات من الخلاف جرى تسوية كل القضايا المتنازع عليها والمتعلقة بمصنع أيروديف والتي أثيرت بسبب رفض الفرنسيين تنفيذ التزاماتهم بتزويد إيران باليورانيوم المخصب الخفيف.

ويجب ألا نسمح مرة أخرى بتعكير العلاقات الفرنسية الإيرانية وقد عادت المياه إلى مجاريها تقريبا، ومهما كانت الاضطرابات القائمة والتي يمكن أن تقوم، وما هو غريب فعلا أن الخدوش بسبب الموضوع العراقي لم تصل إلى عمق الحب والإعجاب اللذين يكنّهما الإيرانيون لفرنسا، وحتى أكثر أنصار النظام تعصبا يرون أن فرنسا ليست كبقية البلدان الغربية فهناك في إيران، كما في مناطق أخرى في العالم من ينتظر منا الكثير، أكثر حتى مما نستطيع تقديمه، ولكن مع عدم قدرتنا على تلبية كل شيء، فلنقل على الأقل إن هذا المتوقع منا يفرض علينا واجبات عدة أهمها أن نصغي، وأن نتفهم، وأحياناً أن نتعلم كيف ننسى وأن نقول الحقيقة باستمرار.


@Ahmedyassin90

الفهرس


@Ahmedyassin90


FRANÇOIS NICOULLAUD
LE TURBAN ET LA ROSE
DOCUMENT


@Ahmedyassin90
9789960545486